كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمّد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الرابع

وفيه تفسير سورة آل عمران بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

obeikandl.com

« الطبعة الأولى »

جميع الحقوق محفوظة

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

obeikandi.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لـكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيى السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

وهي مدنية. مائتا آية، أو إلا آية . سميت بذلك لأن اصطفاء آل عمران ، وهم عيسى ويحي ومريم وأمها ، نزل فيه منها ما لم ينزل في غيره . إذ هو بضع وثمانون آية . وقد جعل هذا الاصطفاء دليلًا على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محب لله ومحبوب له .

وتسمى الزهراء ، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام. والأمان ، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط في شأنه . والكنز ، لتضمنها الأسرار العيسوية . والمجادلة ، لنزول نيف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران . وسورة الاستغفار ، لما فيها من قوله : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[١] . وطيبة ، لجمعها من أصناف الطيبين في قوله : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ[١]. إلى آخره ، أفاده المهايمي .

والمراد بعمران هو والد مريم، أم عيسى عليهما السلام ، كما يأتي التنويه به في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[٢] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٧] ونصها : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

(٢) [٣/ آل عمران / ٣٣].

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[٣] (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« الٓمٓ » سلف الكلام على ذلك أول البقرة . « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » سبق تأويله فى آية الكرسىّ . « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أى القرآن . عبر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه ، كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل « بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من الكتب المنزلة قبله .

قال المهايمىّ : أى معرّفاً صدق الكتب السالفة . وقال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيًّا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان . فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك . « وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله . تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده . إذ بذلك يترقى شأن مايصدقه رفعة ونباهة، ويزداد فى القلوب قبولًا ومهابة، ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة، واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام . قاله أبو السعود .

والتوراة اسم عبرانىّ معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البُشرى)

أى الخبر الحسن . هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابيْن فى مصنفاتهم . وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها . وهو خبط . بغير ضبط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

« مِنْ قَبْلُ » متعلق بـ«أنزل» ، أى أنزلها من قبل تنزيل الكتاب . والتصريح به مع ظهور الأمر ، للمبالغة فى البيان « هُدًى لِلنَّاسِ » أى لقوم موسى وعيسى . أو ما هو أعم . لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع « وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » وهو الكتب السماوية التى ذكرها . لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو هو القرآن . وإنما كرر ذكره عما هو نعت له ، ومدح له ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله . قال الرازىّ : أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبيّن أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ، ليجعله فرقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل . وعلى هذا التقدير فلا تكرار . ثم استظهر حمل الفرقان على المعجزات التى قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب الفارقة بين دعواهم ودعوى الكذابين . قال : فالفرقان هو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة . انتهى .

ويجوز أن يكون المراد بالفرقان (الميزان) المشار إليه فى قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »(١) . والميزان هو العدل فى الأمور كلها ؛ واللفظ مما يشمل ذلك كله لتلاقيها فى المعنى .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ =

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ » أى جحدوا بهـا « لَهُمْ » بسبب كفرهم بها « عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهذا الوعيد. جىء به إثر ماتقدم حملًا على الإذعان ، وزجراً عن العصيان « وَاللهُ عَزِيزٌ » لا يغالب يفعل ما يشاء « ذُو انْتِقَامٍ » أى معاقبة ، يقال : انتقم الله منه : عاقَبَهُ . والنقمة : المكافأة بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقىّ وسعيد « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » واضحات الدلالة « هُنَّ

= لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصله المعتمد عليه فى الأحكام « وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » وهى ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التى أخبر عنها، أو ما احتملت أوجها . وجعله كله محكماً فى قوله : (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ)(١) بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعانى . ومتشابهاً فى قوله (كِتَاباً مُتَشَابِهاً)(٢) بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن، ويصدق بعضه بعضاً « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » أى ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع « فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » أى طلب الإيقاع فى الشبهات واللبس « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وحده « وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ » أى الثابتون المتمكنون مبتدأ خبره « يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ » أى بالمتشابه على ما أراد الله تعالى « كُلٌّ » من المحكم والمتشابه « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائغة . وهو تذييل سيق منه تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر.

تنبيه :

للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة . وأبدعُ مارأيته فى تحرير هذا المقام مقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان. يقول فى خلالها:

المحكم فى القرآن ، تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله ، مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أوَّلاً اتباعاً للظاهر من قوله : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ . فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ، ينبغى التفطن لها. وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل. فيكون فى مقابلته مايلقيه الشيطان. فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ماليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشىء ويحصل إتقانه ،

(١) [١١ / هود / ١] ونصها : الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

ولهذا دخل فيه معنى المنع ، كما دخل فى الحد بالمنع جزء معناه ، لاجميع معناه . وتارة يكون فى إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحىّ . أو يقال (وهو أشبه) : السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فهو منسوخ فى اصطلاح السلف . وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلِّغ ، وقد يكون فى مسمع المبلَّغ ، وقد يكون فى فهمه ، كما قال : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا[1] . ومعلوم أن من سمع ،سمعَ النص الذى قد رفع حُكْمُهُ ، أودلالة له ، فإنه يلقى الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ ، فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رُفِعَ الحكم ، وَبَانَ المراد . وعلى هذا التقدير ، فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ . بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام فى التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها ، حتى لاتشتبه بغيرها . وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل فى المتشابه (لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله) ، وإنما قال : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع . فإن الله أخبر أنه لايعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا . على مادل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمهور التابعين ، وجماهير الأمة . ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ[2] . وهذا يعم الآيات

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَايَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

المحكمات والآيات المتشابهات . وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ(١).
ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه . يبيّن ذلك أن التأويل، قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم كحيّ بن أخطب وغيره مَن طلب من حروف الهجاء التى فى أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً . لأن ذلك هو عدد ما للحروف فى حساب الجمل ، بعد إسقاط المكرر . وهذا من نوع تأويل الحوادث التى أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر . وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وفد نجران مَنْ تأوّل (إنا ونحن) على أن الآلهة ثلاثة . لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل فى الإيمان بالله . فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر . وهؤلاء تأولوا فى الله . ومعلوم أن (إنا ونحن) من المتشابه. فإنه يراد بها الواحد الذى معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذى معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد الواحد المعظم نفسه ، الذى يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التى كل اسم منها يقوم مقام مسمى . فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع ، والأسماء المشتركة فى اللفظ هى من المتشابه ، وبعض المتواطئ أيضاً من المتشابه. ويسميها أهل التفسير (الوجوه والنظائر) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر . فالوجوه فى الأسماء المشتركة ، والنظائر فى الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين فى ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً فى الأسماء المشتركة، فهى نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ماقاله،

---

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً .

و [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا.

بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين فى قلوبهم زيغ يدّعون المحكم الذى لا اشتباه فيه مثل : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ (١) . إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى (٢) . مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ (٣) . وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ (٤) . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٥) . ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التى أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار . فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف : إن السنة هى تأويل الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها (٦) : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفرلى . يتأول القرآن ، تعنى قوله : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٧) . وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٣] ونصها : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] ونصها : مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢] ونصها : الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٣و٤] .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٣٩ ـ باب التسبيح والدعاء فى السجود .

(٧) [١١٠ / النصر / ٣] .

ليس تأويله فهم معناه ، وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع . وهذا معناه. قال الله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ(١) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه ، ثم قال : هَلْ يَنظُرُونَ ، أى ينتظرون ، إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله . إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجيء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها . كالدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفا صفا ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك . فحينئذ يقولون : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله . فإن الله يقول: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ(٢) . ويقول(٣) : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء، فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ونصهما : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ . ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ، قال الله: أعددت..الخ.

التشابه . كما فى قوله : وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً(١) على أحد القولين أى يشبه مافى الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسمُ تلك الحقائق أسماءَ هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائقُ الحقائقَ من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها فى الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ماهى عليه هى تأويل ما أخبر الله به ، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فإنهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل فى الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانىّ ، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من منافقة الملّتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فى الجنة من الروحانىّ والسماع الطيب والروائح العطرة . كلّ ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته. وكان فى هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون فى الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا ، قال الله تعالى : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ(٢) ، لا ملك مقرب ولا نبىّ مرسل . وقوله : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه . فإن

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] ونصها : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كان عائداً على الكتاب لقوله: منه. ومنه: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، فهذا يصح . فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذى أمرنا أن نؤمن به ، لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ(١) . فجعل التأويل الجائى الكتاب المفصل ، وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله . وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا . وكذلك قوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . وإذا كان التأويل الكتاب كله والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ إلى قوله ـ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ(٢) . وكذلك قوله : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٣) . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله . وهذا واضح بيّن ، ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها. فهذا هذا .

---

(١) انظر الهامش رقم ١ ص ٧٥٦ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٣] .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس ، فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه، بخلاف الأمر والنهى . ولهذا فى الآثار : العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه. لأن المقصود فى الخبر الإيمان. وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه. بخلاف الأمر والنهى فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع . وأمور نتركها لابد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ التأويل فى القرآن قوله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[1] والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه ، وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[2] . فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3] لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله. كما تحداهم وطالبهم لما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4] ، فهذا تعجيز

---

(١) [١٠ / يونس / ٣٩] ونصها : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٧ـ٤٠] .

(٣) [١١ / هود / ١١٧] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٨] .

لجميع المخلوقين . قال تعالى : وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ[١] ، أي مصدق الذى بين يديه ، وتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ، أي مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس . ولما تحدى القائلين : افْتَرَاهُ ، ودل على أنهم هم المفترون ، قال : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله .

فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به . فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن . ومعرفة المخبر به هى معرفة تأويله . وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم .

إن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر به محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله . ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا[٢] . فقد أخبر ، ذماً للمشركين ، أنه إذ قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم فى ذلك . وقوله : أَنْ يَفْقَهُوهُ . يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصرى : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فى ماذا أنزلت وماذا عنى بها . وما استثنى من ذلك لامتشابهاً ولا غيره . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٥و٤٦] .

أقفه عند كل آية وأسأله عنها. فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد من كان يقول: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، يجيب مجاهداً عن كل آية فى القرآن . وهذا هو الذى جعل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل . لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه . فظن أن هذا هو التأويل المنفىّ عن غير الله. وأصل ذلك أن لفظ التأويل، وبه أشير إلى بين ماعناه الله فى القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين . فبسبب الاشتراك فى لفظ (التأويل) اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور فى القرآن .

ومجاهد إمام التفسير ، قال الثورىّ : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وأما التأويل فشأن آخر . ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحدمنهم عن تفسير آية من كتاب الله وقال : هذه من المتشابه الذى لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن فى القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم . وإنما قد ينفون علم بعض ذلك على بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه ، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام فى آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك. فلقبوها ، هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه ، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم ؟ فجوّز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بماشاء . ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التى هى تحريف الكلم عن مواضعه . والغالب على كلتا الطائفتين الخطأ . أولئك يقصرون فى فهمهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ(١) . وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . ومن المتأخرين من وضع المسألة

(١) [٢ / البقرة / ٧٨] .

بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له ؛ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه . وبين نفى المعنى عند المتكلم ، ونفى الفهم عند المخاطب ، بون عظيم . ثم احتج بما لا يجرى على أصله ، فقال: هذا عبث ، والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع فى الحروف ، وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صريح ، ولا عقل صحيح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطؤوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين ، لعلمهم بالقرآن والسنن ، وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب ، علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن . فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأوامر . وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء . وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ، ويتأولون آيات الصفات . وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء فى بعض الصفات ، وبعضهم فى بعض ما جاء فى اليوم الآخر . وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان يغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه.

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن . ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرؤونه ويتلونه وهم لا يفهمونه . وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطؤوا فى معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك

مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ، ولكن بفريةٍ على الله ، وقولٍ عليه مالا يعلمونه ، وإلحادٍ فى أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ التأويل . فإن التأويل فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر: هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات ، إذا صنف بعضهم فى إبطال التأويل ، أو ذم التأويل، أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ، ويترك عند المصلحة ، أو يصح للعلماء دون غيرهم، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما ـ تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . ومحمد بن جرير الطبرىّ يقول فى تفسيره : القول فى تأويل قوله كذا وكذا. واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثانى ـ فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام . فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وبين هذا المعنى والذى قبله بون . فإن الذى قبله يكون التأويل

فيه من باب العلم ، والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح . ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان، له الوجود الذهنىّ واللفظىّ والرسمىّ. وأما هذا، فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلة . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . وهذا الوضع والعرف . الثالث هو لغة القرآن التى نزل بها ، وقد قدمنا التبيين فى ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ(١) . وقوله : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ*قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ(٢).وقول الملأ: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(٣). وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤). وقول يوسف لما دخلوا عليه مصر وآوى إليه أبويه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ(٥) .

---

(١) [١٢/ يوسف/ ٦] ونصها : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٢) [١٢/ يوسف/ ٣٦و٣٧] . . . قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(٣) [١٢/ يوسف/ ٤٤] .

(٤) [١٢/ يوسف/ ٤٥] .

(٥) [١٢/ يوسف/ ٩٩] ونصها : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا[١] .

فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول إليـه، كما قال يوسف : هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ[١] . والعـالم بتأويلها الذى يخبر به ، كما قال يوسف : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ . أى فى المنام . إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . أى قبل أن يأتيـكما التأويل . وقال الله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[٢] قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذى هو الرد إلى الـكتاب والسنة، والتأويل فى سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا ، والتأويل فى الأعراف ويونس تأويل القرآن، وكذلك فى سورة آل عمران . وقال تعالى فى قصة موسى والعالم : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[٣] . إلى قوله : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[٤] . فالتأويل هنا تأويل الأفعال التى فعلها العالم

(١) [١٢ / يوسف ١٠٠] . . . وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . . .

(٣) [١٨ / الـكهف / ٧٨] .

(٤) [١٨ / الـكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...

من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار . فهو تأويل عمل، لا تأويل قولٍ ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوّله يؤوله تأويلًا ، مثل حوّل تحويلًا ، وعول تعويلًا . و (أوّل يؤوّل) تعدية (آل يؤول أوْلا)،مثل حال يحول حولًا، وقولهم (آل يؤول) أى عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المآل ، وهو مايؤول إليه الشىء. ويشاركه فى الاشتقاق الموئل ، فإنه وَأَل ، وهذا من أَوَل ، والموئل المرجع ، قال تعالى : وَلَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لايستعمل إلا فى عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل . كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون . بخلاف الأهل . والأول أفعل ، لأنهم قالوا فى تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى ، وفى القصص : وله الحمد فى الأولى والآخرة . ومن الناس من يقول فوعل ويقول (أوّلة) إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف . سمى المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحمر وحمراء، ولهذا يقولون: جئته أول من أمس وقال : مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ[1] . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[2] . وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ[3] .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٨] ونصها : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] ونصها : وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ .

ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذى فضل عليهم فى الأوّل ، لأن كل واحد يرجع إلى ماقبله ، فيعتمد عليه ، وهذا السابق ، كلهم يؤول إليه . فإن من تقدم فى فعل، فاستبق به من بعده ، كان السابق الذى يؤول الكل إليه . فالأول له وصف السؤدد والاتباع . ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود . والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدى خلاف العائد . لأنه إنما كان أولًا لما بعده ، فإنه يقال (أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) ، و (أَوَّلَ يَوْمٍ) ، فما فيه من معنى الرجوع والعود ، هو للمضاف إليه لا للمضاف . وإذا قلنا: آل فلان فالعود فى المضاف . لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلًا ومرجعاً لغيره . لأن كونه مفضلًا دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع . إذ لا فضل فى كون الشيء راجعاً إلى غيره ، آيلًا إليه ، وإنما الفضل فى كونه هو الذى يُرجع إليه ويُؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه مآلًا ومرجعاً ، والتفضيل المطلقُ فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدئ . والله أعلم .

فتأويل الكلام ماأوّله إليه المتكلم أومايؤول إليه الكلام أو ماتأوله المتكلم . فإن التفعيل يجرى على غير فعّل كقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(١) ، فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلًا ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل . كعدل وصوم وفطر، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . فالتأويل هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه. والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويُؤوَّل إلى حقيقته التى هى عين المقصود به ، كما قال بعض السلف فى قوله : لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٢) . قال: حقيقة . فإن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإلا لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً

(١) [٧٣ / المزمل / ٨] ونصها : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٧] .

فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول. كما روى عن النبيّ ﷺ أنه تلا هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا(١). قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كلٌّ واحد من القولين طوائفُ من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم ، وإن أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدعٍ وقع فيها غيرهم، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول ـ من قال إن هذا من المتشابه وأنه لايفهم معناه. ماالدليل على ذلك ؟ فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجميّ الذى لا يفهم . ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه . وإنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة . قالوا فى أحاديث الصفات : تُمرّ كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردّوها وأبطلوها . التى مضمونها تعطيل النصوص علىمادلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة فى أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت فى

(١) [٦ / الأنعام / ٦٥] . . . وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

obeikandl.com

أحاديث الوعد . مثل : من غشنا فليس منا[١] . وأحاديث الفضائل . ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا ، بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة الجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن . وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره . بل يبين ويفسر. فاتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد فى أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين ، والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل: إن هذا هو التأويل المذكور فى الآية ، وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان فى هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله . وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها ، لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى . لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرؤوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسى وأول الحديد وآخر الحشر ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، و : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، و : إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، و : الْمُقْسِطِينَ ، و : الْمُحْسِنِينَ ، وأنه : يَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٦٤ ونصه : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

و : لَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ[١] . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ[٢] .
وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ[٣] . الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ[٤] . ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ[٥] .
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ
أَيْنَمَا كُنْتُمْ[٦] . وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[٧] .
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ[٨] . إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ[٩] .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٨] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

(٣) [٩ / التوبة / ٤٦] ونصها : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٦) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٧) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] .

(٨) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٩) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ (١) . مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ (٢) . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٣) . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٤) . يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (٥) . وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٦) . إلى أمثال ذلك . فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هـذا في جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟ فإن قلت هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل كفر صريح . فإنا نفهم من قوله : إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معنى . ونفهم من قوله :

---

(١) [٦/ الأنعام/٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] ونصها : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

(٦) [٢٠ طه / ٣٩] ونصها : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (١) . معنى . ونفهم من قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٢)، معنى. وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا .

وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الرحيم العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك فى قوله : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ. يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم . وهذا الغلو فى الظاهر ، من جنس غلو القرامطة فى الباطن . لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، أو على حق موجود ، أم لا؟ فإن قال: لا، كان معطلاً محضاً. وما أعلم مسلماً يقول هذا . وإن قال: نعم قيل له: فهل فهمت منها دلالتها على نفس الرب، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعانى من الرحمة والعلم، وكلاهما فى الدلالة سواء؟ فلابد أن يقول: لأن ثبوت الصفات محال فى العقل، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث. بخلاف الذات. فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثانى كما سنذكره . وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض. فيقال له: ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه؟ فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة، بخلاف الآخر. أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر، وكلا الوجهين

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] ونصها : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

باطل فى أكثر المواضع ، أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير عليّ عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته . وأما الثانى فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر : لم نفيت ، مثلًا ، حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة فى حقنا هى رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة فى حقنا هى ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه . قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه . وكذلك محبته . وإن قال (وهو حقيقة قوله) : لم أُثْبِت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبتُّ العلم والقدرة والإرادة بالعقل . وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين . لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم . والتخصيص دل على الإرادة . قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإدناء . وأنواع التخصيص التى لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص ، وما سلكه فى مسلك الإرادة يسلك فى مثل هذا .

الثانى ـ يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا ، فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفى به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه فى هذه المضايق أعظم ، ودلالته أتم ، فلأى شئ نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة ؟ مع أن النصوص تفرق . فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها فى إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث ـ يقال له : إذا قال لك الجهمى : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضى محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة . فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم . ولا يقولون بتجدد صفة له ، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم . مع تناقضهم .

فصاروا حزبين :

البغداديون ـ وهم أشد غلواً فى البدعة فى الصفات وفى القدر ، نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبى : لا معنى لها إلا نفس الفعل ، إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده .

والبصريون ـ كأبى علىّ وأبى هاشم . قالوا : تحدث إرادة لا فى محل ، فلا إرادة . فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقل معلوم الفساد بالبديهة . كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها ، والفعل أيضاً . فإذا أخذ الخصم ينازع فى دلالة النص أو العقل ، جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود فى الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه فى دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعىّ .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله فى العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعانى ، وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ماقررناه فى غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفى به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويُلْزَمُون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية، والضرورة العقلية، والقواطع العقلية، واتفاق الأمم، وغير ذلك من الدلائل . ثم يطالبون بوجودٍ من جنس مانعهده، أو بوجودٍ يعلمون كيفيته ، فلابد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول فى سائر ما سمى ووصف به نفسه ، كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة ، لابد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى ، وانتفاء المانع . وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتضٍ ولا مانع ، فيُبيَّن له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم . إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقاً ، فكذلك هنا . وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا . وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذى تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهما ، وإن كان باطلًا لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى ، ولا سبيل إلى النفى فتعين الإثبات . فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولابد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة .

فإن قال مَنْ أثبت هذه الصفات التى هى فينا أعراض كالحياة والعلم والقدرة ، ولم يثبت ما هو فيها أبعاض كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم . قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى كما استلزمت هـذه عندك التركيب الحسى . فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً أو تسميتها تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قال : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية ، قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال . فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز ، وإن لم يكن له فى الشاهد نظير ، قيل له : فاعقل صفة هى لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير . فإن نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق ، لكنه فرق غير مؤثر فى موضع النزاع . ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفى الجميع لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفى الذات، ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء ، صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص ، ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست فى الكتاب ولا فى السنة ، وهى ألفاظ مجملة . مثل متحيز ومحدد وجسم ومركب ، ونحو ذلك ، ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلّمة ، ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه فى إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء ، فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعىّ لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلّبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة يغلبون القياس الثانى ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضىّ ، فإنه قد قيل : أول ما تُكلِّم فى الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبى الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس وعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من

عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً[١] .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع فى ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا تردّ بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه . ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ . فهذا أحد الوجهين . وهو منع أن تكون هذه من التشابه . الوجه الثانى : أنه إذا قيل هذه من التشابه ، أو كان فيها ما هو من التشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذى فى القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، إما المتشابه ، وإما الكتاب كله كما تقدم . ونفى علم تأويله ليس نفى علم معناه كما قدمناه فى القيامة وأمور القيامة . وهذا الوجه قوىّ إن ثبت حديث ابن إسحق فى وفد نجران ، أنهم احتجوا على النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله « إنّا ونحن » ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن فى القرآن متشابهاً ، وهو ما يحتمل معنيين ، وفى مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك فى مسائل المعاد وأولى ، فإن نفى التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفى التشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا ، وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفى علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ[٢] وقال

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٧ و ٢٨] .

تعالى : الٓرۚ ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢) فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه ، مثل قوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٣) وقوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٤) ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر . وقال علىّ عليه السلام (٥) لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا ! والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف فى الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ،

---

(١) [١٢ / يوسف / ١و٢] .

(٢) [٥٩/ الحشر/ ٢١] وأولها : لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ،

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] .

(٤) [٤ / النساء / ٨٢] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٢٤ ـ باب العاقلة . ونصه : عن أبى جُحَيفة قال : سألت علياً رضى الله عنه : هل عندكم شىء ما ليس فى القرآن ؟ (وقال مرة : ليس عند الناس) فقال : والذى فلق الحب وبرأ النسمة ! ما عندنا إلا ما فى القرآن ، إلا فهماً يُعْطَى رجل فى كتابه . وما فى الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً[١] . وقال النبيّ ﷺ[٢] : رب مبلَّغ أوعى من سامع ، وقال[٣] : بلغوا عني ولو آية . وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا فى جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها. وفسروها بما يوافق دلالتها . ورووا عن النبيّ ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن . وأئمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم. مثل عبدالله ابن مسعود الذى كان يقول : لو أعلمُ أعلمَ بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته .

---

(١) [٢١ / الأنبياء/ ٧٩] ونصها : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج، ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى . ونصه :

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبيّ ﷺ يوم النحر . قال « أتدرون أى يوم هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال « أى شهر هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال « أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا: بلى. قال « فإن دماءكم وأموالكم علىّ حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هـذا إلى يوم تلقون ربكم . ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم ! اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلَّغ أوعى من سامع . فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ونصه :

عن عبدالله بن عمرو أن النبيّ ﷺ قال « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وعبدالله بن عباس الذى دعا له النبىّ ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبىّ ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما فى التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما فى عِلْية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالةً ، أصحاب زيد بن ثابت ، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر ، وابن عمر ، وابن عباس . ولو كان معانى هذه الآيات منفيًّا أو مسكوتاً عنه، لم يكن ربانيو الصحابة أهلُ العلم بالكتاب والسنة أكثرَ كلاماً فيه . ثم إن الصحابة نقلوا عن النبىّ ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمىّ : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبىّ ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل . وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية . كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك ربيعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول. فليس فى أهل السنة من ينكره . وقد بيّن أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟ ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون: لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجرى ماهيته فى مقال . ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية . فإن قيل : معنى قوله (الاستواء معلوم) أن ورود هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذى استأثر الله بعلمه ، قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا

من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هـذا موجود فى القرآن ، وقد تلا الآية ، وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء فى القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة . وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء ، لا العلم بنفس الاستواء ، وهـذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه . لو قال فى قوله : إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى[1] ، كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول . ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم . وأيضاً فإن من قال هـذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لاينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذى لايعلم معناه بالكلية . ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى . وهذه ثابتة عن السلف . وقد ذكر البخارىّ فى صحيحه بعضها فى آخره ، فى (كتاب الرد على الجهمية)[2] .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك ، فهى من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضاً قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس فى خصوص الصفات، بل فى صحيح البخارىّ[3]

---

(١) [٢٠ / طه / ٤٦] وأولها : قَالَ لَا تَخَافَا ،

(٢) كتاب الرد على الجهمية من صحيح البخارىّ هو : ٩٧ ـ كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١ ـ باب مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ =

أن النبيّ ﷺ قال لعائشة : يا عائشة ! إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذريهم، وهذا عامّ . وقصة صُبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا(١)، فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن ، حتى رآه عمر ، فسأل عمرَ عن : الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا(٢) فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبدالله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألحّ عليه رجل فى مسألة من هذا الجنس يقول: ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام(٣) : إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه . وكما قال تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذى يعارض بين آيات القرآن . وقد نهى النبيّ ﷺ عن ذلك وقال(٤) : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبهم

= زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ـ إلى قوله: أُولُوا الْأَلْبَابِ . قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيتِ الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذى سمى الله فاحذروهم » .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٩٩ من الجزء الأول ، ففيها تفصيل ذلك .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١] .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٧٨١ .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١٠ ـ باب فى القدر ، حديث ٨٥ (طبعتنا) ونصه: عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون فى القدر ، فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، من الغضب . فقال « بهذا أُمرتم أو لهذا خُلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم » .

قال فقال عبدالله بن عمرو: ما غبطت نفسى بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ =

ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذى لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ، ومطلوبهم متعذراً ، مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها[١] . ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات . وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل علىّ بن أبى طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها ، كره سؤاله ، لما رآه من قصده . لكن علىّ كان رعيته ملتوية عليه ، لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذى لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر . وكذلك فى الجاريات والمقسمات ، فهذا لا يعلمه إلا الله تعالى . وكذلك فى قوله « إنا ونحن » ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعته النصارى ، فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى بمنزلة الأسماء المتعددة ، مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى واحد ، ومعانى الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذى لفظه الجمع . وأما التأويل الذى اختص الله به ، فحقيقة ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل : هذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

= ما غبطت نفسى بذلك المجلس وتخلفى عنه .

قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) ونصه :

عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات .

قال الأوزاعىّ : الغلوطات شداد المسائل وصعابها .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس[١] : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . قيل : أما تأويل الأمر والنهى فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفى هو تأويل الأخبار التى لا يعلم حقيقة مَخْبَرِها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذى يعلم العباد تأويله . وهذا كقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ [٢] وقوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ [٣] فإن المراد تأويل الخبر الذى فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذى ينتظر ويأتى ، ولما يأتهم . وأما تأويل الأمر والنهى فذاك فى الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل فى التأويل لا ينتظر ، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق . انتهى كلام الشيخ تقى الدين.

وإنما سقته بطوله لماأن هذاالبحث من المعارك المهمة التى قل من حررها ونهج فيها منهج الحق كالشيخ قدس سره. مع مافى خلال البحث من القواعد الجليلة فى فن التفسير. فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١١ـ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ١٦٦ (طبعتنا) ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ . وقال « اللهم ! علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٣) [١٠ / يونس/ ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

وقال الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانيّ فى كتاب « إيثار الحق على الخلق » فى بحث سبب الاختلاف الشديد بين الفرق مانصه :

وأما الأصل الثانى وهو السمعىّ فهو اختلافهم فى أمرين :

أحدهما ـ فى معرفة المحكم والمتشابه أنفسهما والتميز بينهما حتى يردّ المتشابه إلى المحكم ، وثانيهما ـ اختلافهم هل يعلمون تأويل المتشابه ، ثم اختلافهم فى تأويله على تسليم أنهم قد عرفوا المتشابه .

ولنذكر سبب وقوع المتشابه على العقول من حيث الحكمة والدقة فى كتب الله تعالى أولًا ، والمشهور أن سببه الابتلاء بالزيادة فى مشقة التكليف لتعظيم الثواب ، وهذا أنسب بالمتشابه من حيث اللفظ . وأما أنا فوقع لى أن سببه زيادة علم الله على علم الخلق ، فإن العوائد التجريبية ، والأدلة السمعية ، دلت على امتناع الاتفاق فى تفاصيل الحكم ، وتفاصيل التحسين والتقبيح ، ولذلك وقع الاختلاف بين أهل العصمة من الملائكة والأنبياء ، كما قال تعالى حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ »[١] وحكى الله تعالى اختلاف سليمان وداود ، وموسى وهرون ، وموسى والخضر . وصح فى الحديث[٢] اختلاف موسى وآدم ، واختلاف الملائكة فى حكم قاتل

(١) [٣٨ / ص / ٦٩] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣١ ـ باب وفاة موسى وذكره بعد، حديث ١٦٠٤ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومنى على أمر قدِّر علىّ قبل أن أخلق ؟ » فقال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » مرتين .

openkandil.com

المئة نفس[١] ، إلى أمثال لذلك قد أفردتها لبيان امتناع الاتفاق فى نحو ذلك ، وإن علة الاختلاف التفاصيل فى العلم ، فوجب من ذلك أن يكون فى أحكام الله تعالى وحكمه ما تستقبحه عقول البشر ، لأن الله تعالى لو ماثلنا فى جميع الأحكام والحكم دل على مماثلته لنا فى العلم المتعلق بذلك وفى مؤداه ولطائفه وأصوله وفروعه ، ولذلك تجد الأمثال والنظراء فى العلوم أقل اختلافاً ، خصوصاً من المقلدين . وإنما عظم الاختلاف بين الخضر وموسى لما خص به الخضر عليهما السلام. وهذه فائدة نفيسة جداً، وبها يكون ورود المتشابه أدل على الله تعالى وعلى صدق أنبيائه ، لأن الكذابين إنما يأتون بما يوافق الطباع، كما هو دين القرامطة والزنادقة . وقد أشار السمع إلى ذلك بقوله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ[٢] . وقال فى رسول الله ﷺ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[٣]. وكيف يستنكر اختلاف الإنسان الظلوم الجهول وعلام الغيوب الذى جمع معارف

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ ونصه :

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا . ثم خرج يسأل. فأتى راهباً فسأله . فقال له : هل من توبة ؟ قال: لا. فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدره نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه : أن تقرّبى. وأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما . فوُجد إلى هذه أقرب بشبر . فغُفِرَ له » .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١] ونصها: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .

(٣) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ =

العارفين فى علمه مثل ما أخذه العصفور فى منقاره من البحر الأعظم؟ بل كيف لا يختص هذا الرب الأعظم بمعرفة ما لا نعرفه من الحكم اللطيفة التى يستلزم تفرده بمعرفتها أن يتفرد بمعرفة حسن ما تعلقت به وتأويله ، وبهذا ينشرح صدر العارف للإيمان بالمتشابه ، والإيمان بالغيب فى تأويله. ولنذكر بعد هذا كل واحد من الأمرين المقدم ذكرهما على الإيجاز .

أما الأمر الأول ـ وهو اختلافهم فى ماهيتهما . فمنهم من قال : المحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى . فهؤلاء رجعوا بالمحكم إلى النص الجلى ، وما عداه متشابه . وعزاه الإمام يحيى إلى أكثر المتكلمين وطوائف من الحشوية . ومنهم من قال : المحكم ما كان إلى معرفته سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى معرفته بحال ، نحو قيام الساعة والحكمة فى العدد المخصوص فى حملة العرش ، وخزنة النار . ومنهم من قصر المتشابه على آيات مخصوصة. ثم اختلفوا، فمنهم من قال : هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، ومنهم من قال آيات الشقاوة والسعادة ، ومنهم من قال: المنسوخ ، ومنهم من قال : القصص والأمثال ، ومنهم عكس فقال: المحكم آيات مخصوصة، وهى آيات الحلال والحرام وما عداها متشابه ، إلى غير ذلك ـ حكى الجميع الإمام يحيى فى (الحاوى) ـ واختار أن المحكم ما علم المراد بظاهره بدليل عقلى أو نقلى ، والمتشابه به ما لم يعلم المراد منه لا على قرب ولا على بعد، مثل قيام الساعة والأعداد المبهمة . وقد ترك الإمام والشيخ ابن تيمية وجهاً آخر من المتشابه الذى يحتاج إلى التأويل مما لا يعلمه إلا الله على الصحيح ، وذلك وجه الحكم المعينة فيما لا تعرف العقول وجه حسنه ، مثل خلق أهل النار ، وترجيح عذابهم على العفو مع سبق العلم وسعة الرحمة وكمال القدرة على كل شىء ، والدليل على أن الحكمة الخفية فيه تسمى تأويلا له، ما ذكره الله تعالى فى قصة موسى والخضر ، فإن قوله : سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا [١] صريح فى ذلك ، وهـذا مراد فى الآية ، لأن الله وصف الذين فى قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك ، وهم لا يبتغون علم العاقبة ، عاقبة الخبر عن الوعد والوعيد ، وما يؤول إليه ، على ما فسره الشيخ ، فهم لا يبتغون الجنة والنار والقيامة وذات الرب سبحانه كما يبغيها طالب العيان ، إنما يستقبحون شيئاً من الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معانى كثيرة يختلفون فيها ، وكل منهم يتفرد بمعنى من غير حجة صحيحة إلا مجرد الاحتمال ، وربما خالف ذلك التأويلُ المعلومَ من الشرع فتأولوه ، وربما استلزم الوقوع فى أعظم مما فروا منه ، والذى وضح لى فى هذا وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمور :

أحدها ـ أن الكلام فى ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة على حد علم الله ، كلاهما باطل ، بل من المتشابه الممنوع الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [٢] ولقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ [٣] وإنما تُتَصَوَّر المخلوقات وما هو نحوها . ولما روى من النهى عن التفكر فى ذات الله ، والأمر فى التفكر فى آلاء الله ، ولما اشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن ذلك مذهبه ، حتى رواه عنه الخصوم . ومن أشهر ما حفظ عنه عليه السلام فى ذلك قوله فى امتناع معرفة الله عز وجل على العقول : امتنع منها بها ، وإليها حاكمها . ومن التفكير فى الله والتحكم فيه والدعوى الباطلة على العقول والتكلف

(١) [١٨ / الكهف / ٧٦] وأولها : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

لتعريفها مالا تعرفه ، حدثت هنا البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وأسمائه . ومن البدع في هذا الموضع بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضاً ، فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والأسماء . الجميع ، ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية . ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض . فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أتوا من تعاطي علم ما لا يعلمون . ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الإيمان بما ورد من غير تشبيه لسلموا . فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم ادعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير مظانه ، بل طلبوا علم مالا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضاً في الأدلة السمعية . فالمشبهة ينسبون خصومهم إلى رد آيات الصفات ويدعون فيها ماليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الإسلام جميعاً إلى التشبيه ، ويدعون في تفسيره مالا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصحاح الآثار . وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه باسناده من حديث زيد بن أسلم أن رجلًا سأل أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة فقال : ياأمير المؤمنين! هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟ فغضب عليه السلام ونادى (الصلاة جامعة) فحمد الله وأثنى عليه إلى قوله : فكيف يوصف الذى عجزت الملائكة مع قربهم من كرسي كرامته ، وطول ولههم إليه ، وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس كلهم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١) . فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأتم به واستضئ بنور هدايته ، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها . فخذ ماأوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه،

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] .

ولا فى سنة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك . وقد روى السيّد فى الأمالى أيضاً الحديث المشهور فى كتاب الترمذىّ عن على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال[١] : ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، فهو الفاصل بين الحق والباطل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله إلى قوله : من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدِى إلى صراط مستقيم . ورواه فى أماليه بسند آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن ، ونصه : عن الحارث قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث . فدخلت على علىّ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أَمَا إنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إنها تكون فتنة » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

خذها إليك يا أعور !

(قال أبو عيسى) هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفى الحارث مقال .

ورواه ابن الأثير فى (الجامع) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو مع شهرته فى شرط أهل الحديث متلق بالقبول عند علماء الأصول ، ولـكن المبتدعة يرون تصانيفهم أهدى منه، لبيانهم فيها، على زعمهم، المحـكم من المتشابه . فمنهم من صرح بذلك وقال: إن كلامه أنفع من كلام الله تعالى ، وكتبه أهدى من كتب الله ، وهم الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العنانى. وقد حمله الإمام المطهر بن يحيى على الجنون، وقيل: لم يصح عنه . ومنهم من يلزمه ذلك وإن لم يصرح به . فهذا الأمر الأول من المتشابه وهو التحكم بالنظر فى ذات الله تعالى . وما يؤدى إليه .

الأمر الثانى ـ من المتشابه الواضح تشابهه والمنع منه ، هو النظر فى سر القدر السابق فى الشرور مع عظيم رحمة الله تعالى وقدرته على ما يشاء . وقد ثبت فى كتاب الله تعالى تحير الملائكة الكرام عليهم السلام فى ذلك وسؤالهم عنه بقولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) ثم ساق خبر آدم وتعليمه الأسماء وتفضيله فى ذلك عليهم إلى قوله : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢) وفى ذلك إشارة واضحة إلى ما سيأتى بيانه من أن مراد الله بالخلق هم أهل الخير ، فالخلق كلهم كالشجرة ، وأهل الخير ثمرة تلك الشجرة ، وإليه الإشارة بقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٣) وفى حديث الخليل عليه السلام حين دعا على العصاة ، قال

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] وأولها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، . . .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٣] وأولها : قَالَ يَا ءَادَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ . . .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

الله: كفّ عن عبادى. إن مصير عبدى منى إحدى ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، أو يستغفرنى فأغفر له ، أوأخرج من صلبه من يعبدنى ـ رواه الطبرانىّ ـ .

وقال الإمام الغزالىّ فى كتاب العلم فى (الإحياء) فى أقسام العلوم الباطنة : ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرًّا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش وكما يضر ريح الورد بالجعل . وكيف يبعد هذا ، وقولنا : إن كل شىء بقضاء من الله وقدر ـ حق فى نفسه ، وقد أضر سماعه بقوم حيث أوهم ذلك عندهم دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة، والرضا بالقبيح والظلم . وألحد ابن الراوندىّ وطائفة من المخذولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى أوهم عند أكثر الخلق عجزاً، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم.

وقال فى شرح (أسماء الله الحسنى) فى شرح الرحمن الرحيم : والآن إن خطر لك نوع من الشر لا ترى فيه خيراً ، أو إن تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فاتهم عقلك القاصر فى كلا الطرفين ، فإنك مثل أم الصبىّ التى ترى الحجامة شرًّا محضاً ، والغبىّ الذى يرى القصاص شرًّا محضاً ، لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول ، وأنه فى حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، لا ينبغى لحكيم أن يهمله . هذا أو قريب من هذا . وفى بعض كلامه نظر قد أوضحته فى (العواصم) والسر فى ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرا قطعاً ، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١) ، وكما صح فى الحدود والمصائب أنها كفارات ، فهذا هو سر القدر فى الجملة ، وإنما الذى خفى تفصيله ومعرفته فى عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء ، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنفى التحسين والتقبيح ، فصرحوا بنفى حكمة الله تعالى، وهم غلاة الأشعرية ، إلا بمعنى إحكام المصنوعات فى تصويرها لا سواه ، ومن الناس من أداه ذلك إلى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

القول بالجبر ، ونفى قدرة العباد واختيارهم ، ومنهم من جمع بينهما . ومن الناس من جعل الوجه فى تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم ، وهم جمهور المعتزلة ، لكنهم يعتذرون عن تسميته عجزاً ، ويسمونه غير مقدور . ومنهم من جعل العذر فى ذلك أن الله لا يعلم الغيب ، وهم غـلاة القدرية ، نفاة الأقدار . وقد تقصيتُ الردود الواضحة عليهم ، والبراهين الفاضحة لهم فى (العواصم) ، وجمعت فى ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه، فى علمى . فتمت هـذه المسألة فى مجلد ضخم ، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدَر اثنين وسبعين، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين ، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثاً، من غير الآيات القرآنية ، والأدلة البرهـانية . وصنف ابن تيمية فى بيان الحـكمة فى العذاب الأُخروىّ ، وتبعه تلميذه ابن قيّم الجوزية ، وبسط ذلك فى كتابه (حادى الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك فى جزء لطيف ، وزدت عليه . ومضمون كلامهم أنه لا يجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لـكونه شراً ، بل لابد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه ، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى . وطردوا ذلك فى شرور الدارين معاً . ونصر ذلك الغزالىّ فى شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد فى ذلك حديثاً واحداً ، مما يدل على المنع من الخوض فى تعيين الحـكمة فى ذلك فنقول : قال البيهقىّ فى كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس : لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم! أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت فى ذلك تعصى ، فـكيف هـذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه أنى لا أُسأل عما أفعل ، وهم يُسألون . فانتهى موسى .

ورواه الهيثمىّ فى مجمع الزوائد ، وعزاه إلى الطبرانىّ ، وزاد فيـه : فلما بعث الله عزيراً سأل اللهَ مثل ماسأل موسى، ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرّ صرّة من الشمس ؟ قال : لا . قال: أفتستطيع أن تجىء بمكيال من الريح ؟ قال : لا . قال : أفتستطيع

أن تجىء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا . قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . أما أنى لا أجعل عقوبتك إلا أنى أمحو اسمك من الأنبياء ، فلا تذكر فيهم . فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته سأل عن ذلك، كموسى . وأجيب عليه بمثل ذلك ، وقال الله تعالى : لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، فجمع عيسى من معه فقال : القدر سر الله تعالى فلا تكلفوه .

وروى الطبرانىّ عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر؟ فقال: وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد تحيراً . قلت : ويشهد لهذه الآيات ما جاء فى كتاب الله من قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا(١) . والجواب الجملىّ عليهم كما مر . وأما أحاديث النهى عن الخوض فى القدر فعشرة أحاديث ، رجال بعضها ثقات ، وبعضها شواهد لبعض ، كما أوضحته فى (العواصم) وأقلّ من هذا مع شهادة القرآن والبرهان لذلك ، يكفى المنصف . وما حدث بسبب الخوض من الضلالات زيادة عبرة وحيرة .

الأمر الثالث ـ من المتشابه : الحروف المقطعة أوائل السور ، فإن الجهل بالمراد بها معلوم، كالألم والصحة . والفرق بينها وبين أقيموا الصلاة ، ونحو ذلك ضرورىّ . ودعوى التمكن من معرفة معانيها تستلزم جواز أن ينزل الله سورة كلها كذلك أو كتاباً من كتبه الكريمة، ويستلزم جواز أن يتخاطب العقلاء بمثل ذلك ، ويلوموا من طلب منهم بيان مقاصدهم ، ونحو ذلك . وهذا هو اختيار زيد بن علىّ عليه السلام ، والقاسم والهادى عليهما السلام ، وهو نص فى تفسيرها المجموع . وكذلك الإمام يحيى عليه السلام ، ذكره فى (الحاوى) وقولهم :

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنا مخاطبون بهـا فيجب أن نفهمها ــ مقلوب . وصوابه : أن لا نفهمها فيجب أن لا نـكون مخاطبـين بفهمها . وقد ذكرت فى الحجة على أنها غير معلومة أكثر من عشرين حجة فى تـكميلة ترجيح أساليب القرآن .

الأمر الرابـع ــ من المتشابه : المجمل الذى لا يظهر معناه بعلم ولا ظن ، سواء كان بسبب الاشتراك فى معناه ، أو لغرابته ، أو عدم صحة تفسيره فى اللغة والشرع ، أو غير ذلك . فقد وقع الوهم فى المجمل لنوح عليه السلام ، كيف لغيره ؟ وذلك قوله : إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ(١) .

وأما المحـكم فهو ما عدا المتشابه ، وغالبه النص الجلىّ ، والظاهر الذى لم يعارض ، والمفهوم الصحيح الذى لم يعارض ، والخاص والمقيد وإن عارضهما العام والمطلق . ويلحق بهذا فوائد .

الأولى ــ الصحيح فى قوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » الوقف على الله ، بدليل ذم مبتغى تأويل المتشابه فى الآية . وهو اختيار الإمام يحيى فى (الحاوى) واحتج بأن « أمّا » للتفصيل على بابها ، والتقدير و « أما الراسخون » بدليل قوله تعـالى « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » كما تقول : أما زيد فعالم وعمرٌو جاهل ، أى وأما عمرو فجـاهل ، يوضحه أن المخالِف مسلِّم أن هذا هو الظاهر منهـا ، لـكنه يقول : إنه يجب تأويلها على أن المراد ذمهم بابتغاء تأويله الباطل ، فيقيد إطلاق الآية بغير حجة ، ويجعلها من المتشابه ، مع أنها الفارقة بين المحـكم والمتشابه ، وهذا خلف .

---

(١) [١١ / هود / ٤٥ و ٤٦] ونصهما : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

وقد روى الحاكم عن ابن عباس أنه قرأ « ويقول الراسخون » وقال : صحيح . ورواه الزمخشرىّ فى كشافه قراءة عن أبىّ وغيره ، ورواه الإمام أبو طالب فى أماليه عن علىّ عليه السلام . ولم يتأوله ولم يطعن فيه ، وهو فى (النهج) أيضاً ، وهو نص لا يمكن تأويله ، فإن لفظه عليه السلام: اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق، فيما لم يكلفهم البحث عنه، رسوخاً . فاقتصر على ذلك . انتهى بحروفه .

وأيضاً فلا يجب علم جميع المكلفين بذلك عند الخصوم ، إذ فى المتكلفين الأمىّ والعجمىّ ونحوهم . وإذا كان علم البعض يكفى ويخرج الخطاب بذلك عن العبث ، جاز أن يكون ذلك البعض هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن شاء الله من ملائكته وخواص عباده . والله سبحانه أعلم .

الفائدة الثانية ـ إذا تعارض العام والخاص ، فالمحكم هو الخاص والبناء عليه واجب ، وفيه الجمع بينهما ، وفى العكس طرح الخاص مع رجحانه بالنصوصية . وهى قاعدة كبيرة فاحفظها. ولا خلاف فيها فى الاعتقاد ، لعدم القاعدة فى التاريخ فيه ، ولذلك أجمعوا على إثبات الخلة للمتقين ، وتأويل نفى الخلة المطلق ، فتأمل ذلك .

الفائدة الثالثة ـ إذا كان التحسين العقلىّ مع بعض السمع فهو المحكم ، والمتشابه مخالفه، لما وضح من تأويل الخضر بموافقة العقل ، وفى مخالفة هذه القاعدة عناد بيّن وضلال كبير ، فاعرفها واعتبر مواضعها ترشد. إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » من مقال الراسخين ، أى لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم « وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » تثبت بها قلوبنا « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » كثير النعم والإفضال ، جزيل العطايا والنوال . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قِبَلِهِ تعالى . وعن عائشة رضى الله عنها[١] قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قلت : يا رسول الله ! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ــ وهو فى الصحيح والسنن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » وهذا

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ـ كتاب الدعوات، ٨٩ ـ باب حدثنا أبو موسى الأنصارىّ ونصه : عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ، أم المؤمنين : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت : قلت يا رسول الله ! ما أكثر دعاءك : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال « يا أم سلمة ! ليس آدمىّ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ (أحد رجال السند) : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .

من تتمة كلام الراسخين فى العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية والرحمة ، فكأنهم قالوا : ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا ، فإنها منقضية منقرضة . وإنما الغرض الأعظم منه ، ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآل . فإنا نعلم أنك يا إلٰهنا جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لايكون خلفاً ، فمن زاغ قلبه بقى هناك فى العذاب أبداً، ومن منحته الرحمة والهداية بقى هناك فى السعادة والكرامة أبداً. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ، مايتعلق بالآخرة ــ أفاده الرازىّ ــ ثم قال : احتج الجبائىّ بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال: وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد بدليل قوله تعالى : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا(١). والوعد والموعد والميعاد واحد. وقد أخبر فى هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد. فكان هذا دليلًا على أنه لايخلف فى الوعيد . والجواب : لانسلّم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقاً ، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد. أماقوله تعالى : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . قلنا : لم لايجوز أن يكون ذلك ، كما فى قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢).

---

(١) [٧/ الأعراف / ٤٤] ونصها : وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣/ آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.
و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ =

وقوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(١) . وأيضاً لم لايجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله، فكان المراد من الوعد تلك المنافع .

وذكر الواحدىّ فى (البسيط) طريقة أخرى فقال : لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء ، دون وعيد الأعداء ، لأن خلف الوعيد كرم عندالعرب . قال : والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك ، قال الشاعر :

إذا وعد السرّاءَ أنجز وعده وإن أوعد الضراءَ فالعفو مانعه

وروى المناظرة التى دارت بين أبى عمرو بن العلاء ، وبين عمرو بن عبيد . قال أبو عمرو ابن العلاء لعمرو بن عبيد : ماتقول فى أصحاب الكبائر ؟ قال : أقول إن الله وعدوعداً وأوعد إيعاداً ، فهو منجز إيعاده كما هو منجز وعده ، فقال أبو عمرو بن العلاء : إنك رجل أعجم ، لا أقول أعجم اللسان ، ولكن أعجم القلب . إن العرب تعدّ الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، وأنشد :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمكذب إيعادى ومنجز موعدى

واعلم أن المعتزلة حكوا أن أباعمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام ، قال له عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ؟ فهل يسمى الله مكذب نفسه ؟ فقال : لا ، فقال عمرو بن عبيد فقد سقطت حجتك ، قالوا : فانقطع عمرو بن العلاء .

وعندى أنه كان لأبى عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول : إنك قست الوعيد على الوعد ، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين ، وذلك لأن الوعد حق عليه ، والوعيد حق له ، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجود والكرم ، ومن أسقط حق غيره

= الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٤] .
(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

فذلك هو اللؤم ، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد ، وبطل قياسك . وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق . فأما قولك : لو لم يفعل لصار كاذباً ومكذباً نفسه ، فجوابه أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزما من غير شرط ، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب فى كلام الله تعالى. فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية. والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ » التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار « وَلَا أَوْلَادُهُمْ » الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة « مِنَ اللهِ » أى من عذابه تعالى « شَيْئًا » من الإغناء ، أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه . يقال : ما أغنى فلان شيئاً ، أى لم ينفع فى مهم ، ولم يكف مؤنة . ورجل مغن أى مجزئ كاف ـ قاله الأزهرى . ونظير هذه الآية قوله تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (١) « وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » بفتح الواو أى حطبها ، وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها ، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد ، والفتح للحطب . وقال الزجّاج : المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح . وهذا كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٢) » .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩] .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى دأب هؤلاء فى الكفر كدأب آل فرعون . والدأب (بالسكون ، ويحرّك) مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه ، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، مجازاً . يقال : هـذا دأبك أى شأنك وعملك ، قال الأزهرىّ عن الزجّاج فى هـذه الآية : أى كأمر آل فرعون ، كذا قال أهل اللغة . قال الأزهرىّ : والقول عندى فيه ـ والله أعلم ـ أن دأبهم هنا اجتهادهم فى كفرهم وتظاهرهم على النبىّ ﷺ ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ؛ يقال : دأبت أدأب دأباً ودؤوباً إذا اجتهدت فى الشىء ـ انتهى ـ قال أبو البقاء : وفى ذلك تخويف لهم لعلهم بما حل بآل فوعون « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، فالموصول فى محل جر عطف على ما قبله « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبنىّ على السؤال المقدر « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ » أى عاقبهم وأهلكهم بسببها. « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى الأخذ بالذنب . فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بهذا الدين وهم اليهود (للرواية الآتيـة) أو نصارى نجران ، لأن السورة نزلت لإحقاق الحق معهم ، أو أعمّ « سَتُغْلَبُونَ » أى فى الدنيـا « وَتُحْشَرُونَ » أى يوم القيامة « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » الفراش ، أى فكفركم ككفر آل فرعون بموسى، وقد فعل بقريش لكفرهم مارأيتم ، فسيفعل بكم ما فعل بهم ،

وهو أنكم تُغلبون كما غُلبوا . وقد صدق الله وعده بقتل قريظة[١] ، وإجلاء بني النضير[٢] ، وفتح خيبر[٣] ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة . وقد روى أبو داود فى سننه والبيهقىّ فى الدلائل من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً ، فقالوا : يامحمد ! لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله « قُلْ لِلَّذِينَ ... » إلى قوله « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ » أيها الكافرون المتقدم ذكرهم « ءَايَةٌ » عبرة ودلالة على أنكم ستغلبون ، وعلى أن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله ، ومُعْلٍ أمره « فِي فِئَتَيْنِ » أى فرقتين « الْتَقَتَا » يوم بدر للقتال « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » أى طاعته ، وهم النبىّ وأصحابه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٤ ـ باب حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر .

وكانوا ثلاثمائه وثلاثة عشر رجلًا . معهم فرسان وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة « وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ » وهم مشركو قريش وكانوا قريبا من ألف « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ » أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين ، أراهم الله إياهم، مع قلتهم، أضعافهم ليهابوهم ، ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله تعالى ، كما أمدهم بالملائكة . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال : وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ(١) قلت : قللوا أولًا فى أعينهم حتى اجترؤوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين . ونظيره فى المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ(٢) . وقوله تعالى: وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(٣) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم ، أبلغ فى القدرة وإظهار الآية ـ كذا فى الكشاف ـ قلت : أو يجاب بأنهم كثروا أولًا فى أعينهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصافّ والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمراً كان مفعولًا « رَأْيَ الْعَيْنِ » يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات ـ كذا فى الكشاف ـ « وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ » أى يقوّى « بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى التكثير والتقليل ، وغلبة القليل ، مع عدم العدة ، على الكثير الشاكى السلاح « لَعِبْرَةً » أى لاعتباراً وآية وموعظة « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » لذوى العقول والبصائر .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤٤] ونصها : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٩] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها ، وتزهيد الناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها . والمراد بالناس الجنس ـ قاله أبو السعود ـ « حُبُّ الشَّهَوَاتِ » أى المشتهيات ، وعبر عنها بذلك مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوباً فيها ، أو تخسيساً لها ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية ، « مِنَ النِّسَاءِ » فى تقديمهن إشعار بعراقتهن فى معنى الشهوة إذ يحصل منهن أتم اللذات « وَالْبَنِينَ » للتكثر بهم ، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم ، والتفاخر والزينة « وَالْقَنَاطِيرِ » أى الأموال الكثيرة وقوله « الْمُقَنْطَرَةِ » مأخوذ منها للتوكيد كقولهم ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة ، وإبل مؤبلة ، ودراهم مدرهمة « مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال الرازىّ : وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء ، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هى القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب ـ لا جرم كانا محبوبين « وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ » أى المرسلة إلى المرعى ترعى حيث شاءت ، أو التى عليها السيمياء ـ أى العلامة ـ قال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضاح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غراً محجلة « وَالْأَنْعَامِ » جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم لتحصيل الأموال النامية « وَالْحَرْثِ » أى الأرض المتخذة للغراس والزراعة « ذَٰلِكَ » أى المذكور « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يتمتع به فيها ثم يفنى « وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » أى المرجع وهو الجنة ، فينبغى الرغبة فيه دون غيره . وفى إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها ، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله ، وتزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة .

تنبيه :

فى تزيين هذه الأمور المذكورات للناس إشارة لما تضمنته من الفتنة :

فأما النساء ، ففى الصحيح أنه ﷺ قال(١) : ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء.

وأما البنون ، ففى مسند أبى يعلى عن أبى سعيد مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة ، أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، ويمتنع أبوه من الإنفاق فى الطاعة خوف فقره ، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته ، وقد قال تعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ(٢) ، وقيل لبعض النساك : ما بالك لا تبتغى ما كتب الله لك ؟ قال : سمعاً لأمر الله . ولا مرحباً بمن إن عاش فتننى ، وإن مات أحزننى . يريد قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) .

وأما القناطير المقنطرة ففيها الآية قبل ، وقوله تعالى : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ(٤) ، وقال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ(٥) ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٧ ـ باب ما يتقى من شؤم المرأة ، حديث ٢١٠٩ ، عن أسامة بن زيد .

(٢) [٦٤/التغابن/١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٦٤ / التغابن / ١٥] .

(٤) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٣] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً . =

obeikandl.com

فما يورث البطر مثل الغنى . وبه تستجمع أسباب السؤدد والرئاسة والمجد والتفاخر .

وأما الخيل فقد تكون على صاحبها وزراً : إذا ربطها فخراً ورياءً ونواء لأهل الإسلام ، كما فى الصحيح[1] وفى مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً : الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله وذكر ماشاء الله ؛ وأما فرس الشيطان فالذى يقامَر أو يراهَن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنَها فهى تَسْتُرُ من فقرٍ .

وأما الفتنة بالأنعام والحرث ففى معنى ما تقدم . والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ماعنده من حسن المآب إجمالًا ، أشار إلى تفصيله مبالغة فى الترغيب فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ » أى الشهوات المزينة لكم « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » الله ولم ينهمكوا فى شهواتهم « عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، و « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر المبتدأ الذى هو « جَنَّاتٌ » و « تَجْرِى » صفة لها ، و « عِنْدَ » إما متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار ، وإما صفة للجنات فى الأصل،

= و [٤١ / فصلت / ٥١] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

(١) فى المسند فقط رقم ٣٧٥٦ (طبعة المعارف) .

قدّم فانتصب على الحال . والعندية مفيدة لـكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها « خَالِدِينَ فِيهَا » أي ما كثين فيها أبد الآباد لايبغون عنها حولا « وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أي من الأرجاس والأدناس البدنية والطبيعية مما لايخلو عنه نساء الدنيا غالباً « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ » التنوين للتفخيم أي رضوان وأي رضوان لايقدر قدره . وهذه اللذة الروحانية تتمة ماحصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها. كما قال تعالى في آية براءة: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ»[1] أي أعظم ما أعطاهم من النعيم المقيم. روى الشيخان[2] عن أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. « وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » أي عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهدوا فيما زهّدهم فيه من أمور الدنيا . ثم وصف سبحانه الذين اتقوا ففازوا بتلك الكرامات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال الحاكم : في الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وماتقرب به إلى الله ، ثم يدعو. ويؤيده

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٥٨ .

[library stamp]

مافى الصحيحين من حديث أصحاب الغار[١]، وتوسل كل منهم بصالح عمله ، ثم تفريج البارى تعالى عنهم. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

« الصَّابِرِينَ » أى على البأساء والضراء وحين البأس « وَالصَّادِقِينَ » فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم « وَالْقَانِتِينَ » المطيعين لله الخاضعين له « وَالْمُنْفِقِينَ » أموالهم فى سبيل الله تعالى من الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » جمع سحر (بفتحتين وفتح وسكون) وهو الوقت الذى قبيل طلوع الفجر آخر الليل . وتسحّر إذا أ كل فى ذلك الوقت . قال الحرالىّ : وفى إفهامه تهجدهم فى الليل كما قال تعالى : كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[٢] . وقال الرازىّ : واعلم أن المراد منه من يصلى بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك . فقوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل ـ انتهى ـ وقد روى ابن أبى حاتم أن عبد الله بن عمر كان يصلى من الليل ، ثم يقول : يانافع ! هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة. وروى ابن جرير عن حاطب قال: سمعت رجلا فى السحرفى ناحية المسجد وهو يقول: يارب أمرتنى فأطعتك، وهذا السحر. فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى الصحيحين[٣] وغيرهما من المسانيد والسنن

---

(١) انظر صحيح البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١٧و١٨] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٤ ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل حديث ٦٢٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ ـ ١٧٢ .

من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا ، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ وفى رواية لمسلم : ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم؟ وفى رواية : حتى ينفجر الفجر .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنىّ فى ذلك جزءا على حدة. فرواه من طرق متعددة . ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يابنىّ! لا يكن الديك أحسن منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية ، والألطاف السبحانية ، وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة ، والرغبة وافرة ، مع قربه ، تعالى وتقدس ، من عباده . قال السيوطىّ: فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازىّ : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان ، وفى كمال العبودية .

الأول ـ أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصبح كان الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام ، والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير ، يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى فى القلب .

والثانى ـ أن وقت السحر أطيب أوقات النوام ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل .

والثالث ـ نقل عن ابن عباس «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» يريد المصلين صلاة الصبح، انتهى. وهذا الثالث أخرجه ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم . وعليه، فإنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : الواو المتوسطة بين الصفات، للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » أى علم وأخبر أو قال أو بيّن أنه لا معبود حقيقىّ سوى ذاته العلية . وشهد بذلك « وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » بالإقرار ، وهـذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم فى التوحيد بالملائكة المشرفين ، بعطفهم على اسم الله عز وجل « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » أى بالعدل فى أحكامه « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » كرره تأكيداً وليبنى عليـه قوله « الْعَزِيزُ » فلايُرام جنابه عظمة « الْحَكِيمُ » فلايصدر عنه شىء إلا على وفق الاستقامة ـ كذا فى جامع البيان ـ .

وقال فى الانتصاف : هذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده ، وذلك أن الكلام مصدّر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » وهو التنزيه . فطال الكلام بذلك فجدد التوحيد تلو التنزيه ، ليلى قوله : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . ولولا هـذا التجديد لكان التوحيد المتقدم . كالمنقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به . والله أعلم .

لطيفة :

قال الرازىّ : فإن قيل : المدعى للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعى شاهداً ؟ الجواب : من وجوه : الأول : وهو أن الشاهد الحقيقىّ ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة . ثم بعد نصب تلك الدلائل ، هو الذى وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، فهو تعالى وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد . وإذا كان

الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ »(١) ـ ثم ساق بقية الوجوه فانظره .

وقال العارف الشعرانيّ ، قدس سره ، في كتاب (الجواهر والدرر) : سألت أخي أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال رضي الله عنه : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه . فقلت له : فلِمَ عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر في الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلي الإلٰهيّ ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا في الذكر على أولي العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم في الوسط ، فاعلم ذلك ، انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ » جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة ـ قاله أبو السعود ـ وفي الآية الأخرى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢) . « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » مطلقاً ، أو اليهود ، في دين

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

الإسلام « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه . ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم بل « بَغْياً بَيْنَهُمْ » أى حسداً كائناً بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ » المنزلة « فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » قائم مقام جواب الشرط . علة له . أى : فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب . فإنه سريع الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ » فى الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » أى انقدت لآياته المنزلة ، وأخلصت نفسى وعبادتى له ، لا أشرك فيها غيره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ، ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة ، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » عطف على الضمير المتصل .

لطيفة :

هل قوله تعالى : فقل أسلمت وجهى لله ، إعراض عن المحاجة ، أو هو محاجة وإظهار للدليل ؟ فمن قائل بالأول ، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنية ، وكان قد أظهر لهم المعجزات الجمة بالقرآن وغيره ، فبعد هذا قال : فإن حاجوك فقل أسلمت الخ. يعنى إنّا بالغنا فى تقرير الدلائل وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد وتمسكتم بها كنتم مهتدين . وإن أعرضتم ، فإن الله

تعالى من وراء مجازاتكم . وهذا التأويل طريق معتاد فى الكلام . فإن المحقّ إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالًا بعد حال ، فقد يقول فى آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعنى فمنقادون للحق مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذى أنا عليه بعد هذه الدلائل التى ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد . فهذا طريق قد يذكره المحتجّ المحقّ مع المبطل المصرّ فى آخر كلامه . ومن قائل بالثانى، أعنى أنه محاجة ، وفى كيفية الاستدلال منها ما ذكره أبو مسلم الأصفهانىّ، وهو أن اليهود والنصارى وعبدة الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقًّا فى قوله ، صادقاً فى دينه . فأمر الله تعالى محمداً ﷺ بأن يتبع ملته فقال : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[١] ، ثم إنه تعالى أمر محمداً ﷺ فى هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[٢] ، فقول محمد ﷺ : أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ . كقول إبراهيم عليه السلام: وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ، أى أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة ، وأخلصت له . فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد فى هذه التفاصيل فقل أنا مستمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة. فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلًا تحت قوله : وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ[٣] ـ نقله الرازىّ ـ « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ » أى الذين

(١) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٩] .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

لا كتاب لهم كمشركى العرب «أَأَسْلَمْتُمْ» لهذه الآيات كما أسلمت ، أم أنتم بعدُ على الكفر. قال الزمخشرىّ : يعنى أنه قد أتاكم من البينات مايوجب الإسلام، ويقتضى حصوله لامحالة ، فهل أسلمتم ، أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها ؟ ومنه قوله عز وعلا : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(١). بعد ماذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانُه للحق ، وللمعاند بعد تجلى الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان . وكذلك فى (هل فهمتها) توبيخٌ بالبلادة وكلّة القريحة ، وفى (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطى المنهىّ عنه . انتهى . « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا » أى خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم « وَإِنْ تَوَلَّوْا » عن هداك وهديك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى تبليغ آيات الله ، لاالإكراه إذا عاندوك، إذ ليس عليك هداهم «وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» وعد ووعيد. قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً(٢)، وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(٣) . وفى

(١) [٥ / المائدة / ٩١] ونصها : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ.

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

الصحيحين[1] وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك.

(١) انظر ، فى ذلك ، ما يأتى :

البخارى فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠١ ـ باب دعوة اليهودى والنصرانى ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال . وفيه كتابه إلى كسرى .

والبخارى فى: ١ ـ كتاب بدء الوحى، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان، وفيه كتابه إلى قيصر.

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢١ ـ باب ماجاء فى سهم الصفى ، حديث ٢٩٩٩ . وفيه كتابه إلى بنى زهير .

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢٧ ـ باب ماجاء فى حكم أرض اليمن ، حديث ٣٠٣٧ . وفيه كتابه إلى بعض رؤساء اليمن .

وفى طبقات ابن سعد ، الجزء الأول ، القسم الثانى ، بالصفحة ١٧و٢٠ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث وجبلة وأمراء غسّان .

وبالصفحة ١٩و٢٧ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هَجَر .

وبالصفحة ٢١ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أساقفة نجران .

وبالجزء الأول ، بالقسم الأول بالصفحة ٣٥ كتابه إلى أهل نجران .

وبالجزء الأول ، القسم الثانى بالصفحة ٢١و٣٣ كتابه إلى أقيال حضرموت .

وبالصفحة ١٥ كتابه إلى النجاشى .

وبالصفحة ١٦ كتابه إلى المقوقس .

وبالصفحة ٢٥ كتابه إلى مسيلمة .

وبالصفحة ٢٨و٣٨ كتابه إلى يهود مقْنا ... الخ الخ.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همّام عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ أنه قال[١] : والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانىّ ، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أهل النار. رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم[٢]: بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال[٣] : كان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن جابر بن عبدالله الأنصارىّ ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كلّ نبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وأحلت لى الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا . فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان . ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا. حديث ٢٣١ . ونصه :

عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبل . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » وهم اليهود. قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاضٍ يهودىّ لما نهاه عن منكر فعله ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليهما السلام. ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم. وقوله تعالى: بِغَيْرِ حَقٍّ ، إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق، فى اعتقادهم أيضاً ، فهو أبلغ فى التشنيع عليهم « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات فى الدارين ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبى وأخذ الأموال منهم غنيمة ، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم . وأما حبوطها فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم . « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ينصرونهم من عذاب الله . وقد دلت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه . وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين. وفى الحديث[1]: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

(١) أخرجه أبو داود فى: ٣٦ ـ كتاب الملاحم، ١٧ـ باب الأمر والنهى، حديث ٤٣٤٤.

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » التوراة . والمراد بهم أحبار اليهود « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ » وهو القرآن « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ » استبعاد لتوليهم بعد علمهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجب، إذ قامت عليهم الحجج الدالة على تنزيله « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » حال من فريق ، أى معرضون عن قبول حكمه . أو اعتراض، أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل . ومن المفسرين من حمل قوله « يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ » على التوراة ، وأن الآية إشارة إلى قصة[1] تحاكم اليهود إلى النبىّ ﷺ لما زنى منهم اثنان ، فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم، فجىء بالتوراة فوجد فيها الرجم، فرجما ، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٦ ـ باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبىّ ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » قالوا : نحممها ونضربهما . فقال « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا : لا نجد فيهـا شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم . فنزع يده عن آية الرجم . فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد .

فرأيت صاحبها يجنأ عليها، يقيها الحجارة .

قال بعض المفسرين : وللآية ثمرتان :

الأولى ـ أن من دعى إلى كتاب الله وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة . وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) .

الثمرة الثانية ـ أن الإسلام ليس بشرط فى الإحصان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين ، ونزلت الآية مقررة له . انتهى ـ أى على القول بذلك ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى التولى والإعراض « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم « وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » من قولهم ذلك . وفى التعبير بالغرور والافتراء إعلام بأن ماحدّثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمّع بما لا يكون . ثم رد قولهم المذكور ، وأبطل ما غرهم باستعظام ما أعدّلهم ، وتهويله ، وأنهم يقعون فيما لاحيلة لهم فى دفعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« فَكَيْفَ » يصنعون ، وكيف تكون حالتهم « إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ » أى فى يوم

(١) [٢٤ / النور / ٥١] .

« لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك ، وهو يوم القيامة « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » أى جزاء ماعملت من خير أو شر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الضمير لكل نفس على المعنى. لأنه فى معنى كل إنسان. أى لايظلمون بزيادة عذاب ، أوبنقص ثواب . ثم علّم تعالى نبيه ﷺ كيف يدعوه ويمجده بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ » أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء . إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . وتعذيباً وإثابة . من غير مشارك ولا ممانع « تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك، وتحقيقٌ لاختصاصها به تعالى حقيقة، وكون مالكية غيره بطريق المجاز ، كما ينبىء عنه إيثار (الإيتاء) الذى هو مجرد الإعطاء على (التمليك) المؤذن بثبوت المالكة حقيقة ـ أفاده أبوالسعود ـ وفى التعبير بـ (مَنْ) العامة للعقلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله، وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينوّل ملك فارس والروم العربَ ، كما وقع منه ماوقع ، وينتهى منه ما بقى ، إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها ، من سائر الأمم الذين دخلوا فى هذه الأمة من قبائل الأعاجم ، وصنوف أهل الأقطار ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض بظهور ملك يوم الدين ـ كذا فى البقاعىّ ـ « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

« تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى تدخل أحدهما فى الآخر، إما بالتعقيب أو بالزيادة والنقص « وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » كالحيوان من النطف والنطف منه ، والبيض من الطير وعكسه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس . قال القفال : والكلمة محتملة للكل ، أما الكفر والإيمان فقال تعالى : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ[١] . يريد كان كافراً فهديناه ، فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعلها قبل ذلك ميتة ، فقال : يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٢] . وقال : فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٣] . وقال : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٤] . « وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى رزقاً واسعاً غير محدود .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ونصها : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٠/الروم/٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٩].

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » جمع ولىّ ، ومعانيه كثيرة. منها المحب والصديق والنصير . قال الزمخشرىّ : نُهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التى يُتصادق بها ويُتعاشر . وقد كرر ذلك فى القرآن : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ(١) . لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ(١) . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . الآية(٢) ـ والمحبة فى الله ، والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان. وقوله تعالى «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» حال. أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالًا أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » أى ومن يوال الكفرة فليس من

(١) [٥ /المائدة/ ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ولاية الله فى شىء يقع عليـه اسم الولاية ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولىّ وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

تود عـــدوّى ثم تزعم أننى صديقك . ليس النوك عنك بعازب

ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » أى تخافوا منهم محذوراً ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخارىّ عن أبى الدرداء أنه قال[1] : إنا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وأصل « تقاة » وُقَيَة ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفاً . وفى المحكم : تقاة يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن فى القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ »[2] ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص فى موالاتهم لأجلها . فتجوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : فى الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة، اتقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعاريض التى ليست بكذب . وقال الصادق : التقية واجبة ، وإنى لأسمع الرجل فى المسجد يشتمنى فأستتر عنه بالسارية لئلا يرانى . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٢ ـ باب المداراة مع الناس ونصه: ويذكر عن أبى الدرداء : إنا لنكشر فى وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتلعنهم .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٨] ونصها : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ .

واعلم أن الموالاة ، التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم في أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . في سبب نزول الآية أنه ﷺ منع عبادة بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش، وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش ، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم، وقد ذكر الراضي بالله أنه يجوز الاستعانة بالفسّاق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدّ ﷺ الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضي بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان عليّ عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب ـ والله أعلم ـ أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها. ويحمل على هذا استعانة الرسول ﷺ لليهود . وممنوعة مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس في تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء. والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالقة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالقة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الزمخشريّ أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى الموادة ، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفرا . كفر . وإن كانت فسقاً، فسق. وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً، لم يكفر ولم يفسق. وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة ، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويحالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليهم ، فهذه معصية

بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدٍ لهم عليه أو لقرابةٍ أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يُرْوَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة [1] .

---

(١) هذه هي حادثة حاطب بن أبي بلتعة يرويها الإمام البخاريّ في صحيحه في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٤١ ـ باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .

عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها.

فانطلقنا تعَادَى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامعي من كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنَّ الكتاب ، أو لنُلْقِيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ « ياحاطب : ماهذا ؟ » .

قال : يارسول الله ! لاتعجل عليّ . إني كنت امرءا ملصقا في قريش ـ ولم أكن من أنفسِها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ « لقد صدقكم » .

قال عمر : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

قال « إنه شهد بدراً . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

وقال الراضى بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر . لأنه ﷺ قال للعباس : ظاهرك علينا . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يَضِيق لضيقه فى قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غَلَب فارس الرومَ . فصار تحقيق المذهب أن الذى يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من المُوالى الرضا بالكفر . والذى يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم . وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البغى والظلم . فإن قيل : حكى عن المهدىّ علىّ بن محمد عليه والسلام أنه كَفَّرَ من تجند مع سلطان اليمن وقضى بردته ، قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التفكير بدليل قطعىّ ، وإن ساغ أن نقول ذلك اصطلاحُ لأمر الإمام كما رد الهادى عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملا ـ انتهى كلامه رحمه الله .

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف ، وقد نقل الإجماعَ على جوازها عند ذلك الإمامُ مرتضى اليمانىّ فى كتابه (إيثار الحق على الخلق) فقال ما نصه :

وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما ـ خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، ولا برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق . وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١) وعاءين فأما أحدهما فبثثته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم . ومازال الأمر فى ذلك

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث ١٠٣ .

يتفاحش . وقد صرح الغزالىّ بذلك فى خطبة (المقصد الأسنى) ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك فى شرح (الرحمن الرحيم) فأثبت حكمة الله ورحمته ، وجوّد الكلام فى ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه فى موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكياء النظار .

وأشار إلى التقية الجوينىّ فى مقدمات (البرهان) فى مسألة قدم القرآن . والرازىّ فى كتابه المسمى (بالأربعين فى أصول الدين) ـ إلى آخر ما ساقه المرتضى فانظره .

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » أى ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاة أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهىّ فى القبح . وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » أى المنقلب والمرجع ليجازى كل عامل بعمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذا توعد . وأراد إخفاء مودة الكفار وموالاتهم وإظهارها . أو تكذيب النبىّ صلى الله عليه وآله ، أو الكفر . وفى هذه الآية تنبيه منه تعالى لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، فإنه عالم بجميع أمورهم وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » بصور تناسبه ، أو فى صحف الملائكة ، أو المعنى جزاء ماعملت « وَ » تجد « مَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ » أى عملها السوء « أَمَدًا بَعِيدًا » أى غاية بعيدة لايصل أحدهما إلى الآخر ، و (تود) فى موضع الحال. والتقدير : وتجد ما عملت من سوء محضراً ، وادّةً ذلك « وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » كرره ليكون على بالٍ منهم لا يغفلون عنه ـ كذا فى الكشاف ـ .

وقال أبوالسعود : تكرير لما سبق وإعادة له ، لكن لاللتأكيد فقط ، بل لإفادة مايفيده قوله عز وجل « وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ » من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، ورحمته الواسعة ، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنيًّا على تناسى صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى دعواه تلك ، حتى يتبع الشرع المحمدىّ فى جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت فى الصحيح (١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبىّ ﷺ . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا » أعرضوا عن الطاعة « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِب الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ » أى اختار بالنبوة « ءَادَمَ » نخلقه بيده ، ونفخ فيـه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة « وَ » اصطفى « نُوحًا » فجعله أول رسول إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ونجى من اتبعه فى السفينة وأغرق من عصاه « وَ » اصطفى « ءَالَ إِبْرَاهِيمَ » أى عشيرته وذوى قرباه، وهم إسمعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى ﷺ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية . وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلق ، وكونه إمام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ(١) ـ الآية ـ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: أنا دعوة أبى إبراهيم «وَ» اصطفى «ءَالَ عِمْرَانَ» إذ جعل فيهم عيسى عليه الصلاة السلام الذى أوتى البينات وأيد بروح القـدس ، والمراد بعمران هـذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم . أى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] ونصها : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه . قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم في العالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذُرِيَةً » أي نسلًا . نصب على البدلية من الآلين ، أو على الحالية منهما .

لطيفة :

الذرية مثلثة ، ولم تسمع إلا غير مهموزة . اسم لنسل الثقلين . وقد تطلق على الآباء والأصول أيضاً . قال الله تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .[1] قال الصاغانيّ : وفي اشتقاقها وجهان : أحدهما أنها من الذرء ووزنها فعولة أو فعيلة . والثاني : أنها من الذرّ بمعنى التفريق لأن الله ذرهم في الأرض ووزنها فعيلة أو فعولة أيضاً . وأصلها ذرورة فقلبت الراء الثالثة ياء كما في تقضت العقاب. كذا في القاموس وشرحه[2] .

---

(١) [٣٦ / يس / ٤١] .

(٢) جاء في اللسان . مادة ذرأ ما يأتي :

قال ابن برّي : جعل الجوهريّ الذرية أصلها ذُرِّيئة بالهمز . فخففت همزتها . وألزمت التخفيف .

قال : ووزن الذرية ، على ما ذكره ، فُعِّيلة ، من ذرأ الله الخلق . وتكون بمنزلة مُرِّيقةٍ وهي الواحدة من العصفر .

وغير الجوهريّ يجعل الذرية فُعْلِيَّة من الذَّرِّ . وفُعْلولة ، فيكون الأصل ذُرُّورَة . ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال . ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، وكسر ماقبل الياء ، فصارت ذُرِّيَّة .

« بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » فى محـل النصب على أنه صفة لذرية . أى اصطفى الآلَيْن حال كونهم ذرية متسلسلة البعض من البعض فى وراثة الاصطفاء « وَاللّهُ سَمِيعٌ » لأقوال العباد « عَلِيمٌ » بضمائرهم وأفعالهم . وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولًا وفعلًا . ونظيره قوله تعـالى : اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [1] . وقـوله : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [2] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ » فى حيز النصب على المفعولية ، بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران ، وبيان كيفيته . أى اذكر لهم وقت قولها الخ . وامرأة عمران هذه هى أم مريم عليها السلام .

فائدة :

قال العلامة النورىّ فى (غيث النفع) : (امرأت عمران) رسمت بالتـاء ، وكل ما فى كتاب الله جل ذكره من لفظ (امرأة) فبالهاء . إلا سبع مواضع ، هذا الأول ، والثانى والثالث بيوسف (امرأت العزيز تراود) (امرأت العزيز الآن) والرابع بالقصص (امرأت

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبيـاء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ.

فرعون) ، الخامس والسادس والسابع بالتحريم (امرأت نوح وامرأت لوط وامرأت فرعون) فلو وقف عليها، فالمكىّ والنحويان يقفون بالهاء، والباقون بالتاء ـ انتهى[١].

« رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » أى مخلصاً للعبادة (عن الشعبىّ) أو خادماً يخدم فى متعبداتك . حرره جعله نذيرًا فى خدمة المعبد ما عاش ، لا يسعه تركه فى دينه (عن الزجاج) . وفى الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها ، وأن للأم الانتفاع بالولد الصغير لمنافع نفسها ، لذلك جعلته للغير . والمعنى : نذرته وقفاً على طاعتك ، لا أشغله بشىء من أمورى . قال أبو منصور فى (التأويلات) : جعلت ما فى بطنها لله خالصاً لم تطلب منه

---

(١) هذا بيان المواضع الستة التى كتبت فيها (امرأت) بالتاء .

١ ـ [١٢ / يوسف / ٣٠] ونصها : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

٢ ـ [١٢ / يوسف / ٥١] ونصها : قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

٣ ـ [٢٨ / القصص / ٩] ونصها : وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ، لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ .

٤ ، ٥ ـ [٦٦ / التحريم / ١٠] ونصها : ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ .

٦ ـ [٦٦ / التحريم / ١١] ونصها : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

الاستئناس به ولا مايطمع الناس من أولادهم ، وذلك من الصفوة التى ذكر عز وجل. وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذى طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً »(١) وماسأل إبراهيم «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ»(٢) وكقوله : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »(٣) هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا مايطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم ـ انتهى ـ . « فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشى على وجه الرضا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا » الضمير لما فى بطنى ، وإنما أنث على المعنى ، لأن مافى بطنها كان أنثى فى علم الله ، أو على تأويل النفس أوالنسمة « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » أى وكنت رجوت أن يكون ذكراً ، وإنما تحسرت أو اعتذرت إذ جهلت قدرها « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » قرئ فى السبع بسكون التاء وضمها ، فعلى القراءة الأولى تكون الجملة المعترضة من كلامه تعالى ، إما لدفع ما يتراءى من أن قولها « رَبِّ وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » قصدت بها إعلام

---

(١) [٣ / آل عمران / ٣٨] ونصها : هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٤] .

obeikandl.com

الله تعالى عن أن يحتاج إلى إعلامها ، فأزيلت الشبهة بقوله « وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » هذا ما يتراءى لى . وإما لما ذكروه من أن الاعتراض تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، وتفخيم لشأنه ، وتجهيل لها بقدره ، أى والله أعلم بالنفس التى وضعتها ، وما علق بها من عظائم الأمور ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك . وعلى القراءة الثانية أعنى ضم التاء، فالاعتراض من كلامها. إما للوجه الأول من الوجهين السابقين كما استظهرتُه ، أو لما ذكروه من قصد الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته ، أو تسلية نفسها على معنى : لعل لله تعالى فيه سرًّا وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ » جملة معترضة أيضاً ، إما من كلامه تعالى قصد به معذرتها فى التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى ، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها ، سيما فى هذا المقام أعنى مقام قصد إخلاص النذير للعبادة . فإن الذكر يفضلها من وجوه منها : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك فى الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان . ومنها: أن الذكر يصلح لقوّته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. ومنها: أن الذكر لا يلحقه عيب فى الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى . فهذه الوجوه تقتضى فضل الذكر على الأنثى فى هـذا المقام . واللام فى (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ، للجنس ـ كذا ظهر لى ـ وعلى قولهم اللام للعهد فيهما أى ليس الذكر الذى طلبته وتخيلت فيه كمالًا ، فصاراه أن يكون كواحد من الأحبار ، كالأنثى التى وهبت لها . فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هـذا ، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها ، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية ، وصلاحية خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك ، فاللام للجنس .

لطيفة :

قيل : قياس كونه من قولها أن يكون « وليست الأنثى كالذكر » فإن مقصودها تنقيص

الأنثى بالنسبة إلى الذكر . والعادة فى مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل ، لا العكس . قال الناصر فى (الانتصاف) وقد وجد الأمر فى ذلك مختلفاً فلم يثبت عين ما قيل . ألا ترى إلى قوله تعالى : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ(١) ، فنفى عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبىّ ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم. ومنه أيضاً : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢). انتهى.

« وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ » قال المفسرون : هى فى لغتهم بمعنى العابدة ، سمتها بذلك رجاءً وتفاؤلًا أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها . لكن رأيت فى تأويل الأسماء الموجودة فى التوراة والإنجيل أن مريم معناه مرارة أو مر البحر. فلينظر. قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لايتعين يوم السابع ، لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع ، كما فيها مشروعية التسمية للأم ، وأنها لاتختص بالأب . ثم طلبت عصمتها فقالت : « وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ » أى أجيرها بحفظك « وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى المطرود لمخالفتك ، فلا تجعل عليها وعلى ذريتها له سلطاناً يكون سبباً لطردها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » أى قبلها أو تكفل بها ، ولم يقل (بِتَقَبُّلٍ) ،

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] ونصها : يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

(٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هوالترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة. قال المهايمى : بقبول حسن يجعلها فوق كثير من الأولياء « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً » بجعل ذريتها من كبار الأنبياء ـ انتهى ـ وقال الزمخشرى : نباتها مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها ، أى كالصلاح والسداد والعفة والطاعة « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أى ضمها إليه ، وقرئ بالتشديد. ونصب زكريا ممدود أو مقصوراً والفاعل الله . أى جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ، وقائماً بتدبير أمورها . وقد روى أن أمها أخذتها وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها إذ كانت بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وأحب كل أن يحظى بتربيتها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها . عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم . على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها ، فطفا قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى آية أخرى : إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ(١) . فأخذها زكريا ورباها فى حجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء ، انزوت فى محرابها تتعبد فيه وصارت بحيث « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

فى الآية مسائل :

الأولى ـ فى معنى المحراب : فى القاموس وشرحه ما نصه : والمحراب : الغرفة والموضع العالى ، نقله الهروى فى غريبه عن الأصمعى ، قال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقى سلّماً

وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.

وعن الأصمعيّ : العرب تسمى القصر محراباً لشرفه . وقال الأزهريّ : المحراب عند العامة الذى يفهمه الناس مقام الإمام من المسجد . قال ابن الأنباريّ : سمى محراب المسجد لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم . ومنه يقال : فلان حرب لفلان إذا كان بينهما بعد وتباغض. وفى المصباح : ويقال هومأخوذ من المحاربة لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه ، ثم قال : ومحاريب بنى إسرائيل هى مساجدهم التى كانوا يجلسون فيها . انتهى .

الثانية ـ فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد، عند خبيب(١) ابن عدىّ الأنصاريّ رضى الله عنه المستشهَد بمكة، قطفُ عنب. كما فى البخاريّ. وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة . ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانىّ فى (اليواقيت) عن العارف أبى الحسن الشاذلىّ قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، انتهى .

الثالثة ـ قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ » الخ تعليل لكونه من عند الله . إما من تمام كلامها فيكون فى محل نصب . وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف . ومعنى (بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرته . وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى .

الرابعة ـ زكريا المنوه به هنا هو والد يحيى عليهما السلام . ومعنى زكريا تذكار الرب. كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل .

---

(١) انظر فى صحيح البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب هل يستأسر الرجل، ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل، تجد فيه قصة خبيب ومقتله مسرودة بتفصيل واف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سيقت فى تضاعيف حكاية مريم ، لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران . فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين . و « هنا » ظرف مكان ، أى فى ذلك المكان ، حيث هو عند مريم فى المحراب ، أو ظرف زمان أى فى ذلك الوقت ، إذ يستعار (هنا وثمت وحيث) للزمان ، دعا زكريا ربه لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها فى النجابة والكرامة على الله تعالى . وإن كانت عاقراً عجوزاً ـ كذا فى أبى السعود ـ والذرية هنا الولد ، قال الزمخشرى : تقع على الواحد والجمع ، وقد سبق الكلام عليها قريباً عند قوله تعالى « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقوله « طَيِّبَةً » بمعنى مطيعة لك ، لأن ذلك طلبة أهل الخصوص كما سبق إيضاحه فى آية « رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ... » الخ. وقوله تعالى « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه ، وقد أجابه الحق تعالى، فأرسل إليه الملائكة مبشرة كما قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ »أى على ألسنتنا « بِيَحْيَىٰ » وقد قرىء فى السبع بكسر « إِنَّ » وفتحها ، ولفظ (يحيى) معرب عن (يوحنا)

اسمه فى العبرانية . ومعنى يوحنا نعمة الرب . كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » أى بنبىّ خلق بكلمة (كن) من غير أب . يرسله الله إلى عباده فيصدقه هو . وذلك عيسى عليه السلام « وَسَيِّداً » أى يسود قومه ويفوقهم « وَحَصُوراً » أى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها عن الشهوات عفة وزهداً واجتهاداً فى الطاعة « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ناشئاً منهم لأنه من أصلابهم . أو كائناً من جملتهم . كقوله: وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١). ولما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ » أى كيف أو من أين « يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ » أى أدركنى الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفنى « وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ » أى ذات عقر ، فهو على النسب، وهو فى المعنى مفعول أى معقورة، ولذلك لم يلحق تاء التأنيث «قَالَ كَذَٰلِكَ» يكون لك الولد على الحال التى أنت وزوجتك عليها لأن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب بل « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر. وفى إعراب « كذلك » أوجه . منها : أنه خبر لمحذوف أى الأمر كذلك . وقوله تعالى « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » بيان له . ومنها أن الكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف . أى الله يفعل مايشاء فعلاً من ذلك الصنع العجيب الذى هو خلق الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٠] ونصها : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً ، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« قَالَ » زكريا « رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً » أى علامة أعرف بها حصول الحمل. وإنما سألها لكون العلوق أمراً خفياً لا يوقف عليه . فأراد أن يعلمه الله به من أوله ليتلقى تلك النعمة بالشكر من أولها ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً « قَالَ » الله تعالى « ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » أى أن لا تقدر على تكليمهم « ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » أى إشارة بيد أو رأس . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه . وقيل: كان ذلك عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ـ حكاه القرطبىّ عن أكثر المفسرين ـ « وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا » أى ذكراً كثيراً «وَسَبِّحْ» أى وسبحه « بِالْعَشِيِّ » وهو آخر النهار . ويقع العشى أيضاً على ما بين الزوال والغروب «وَالْأَبْكَارِ» وهو الغدوة أو من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية الحث على ذكر الله تعالى وهو من شعب الإيمان . قال محمد بن كعب : لو رخص الله لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ » شروع فى تتمة فضائل آل عمران . قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى جواز تكليم الملائكة الولىّ، ويفارق النبىّ فى دعوى النبوة «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ» بالتقريب والمحبة «وَطَهَّرَكِ» عن الرذائل ليدوم انجذابك إليه «وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»

بالتفضيل وبما أظهره من قدرته العظيمة حيث خلق منك ولداً من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . وفى (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال بنبوة مريم . كما استدل بها من فضلها على بنات النبىّ ﷺ وأزواجه. وجوابه: أن المراد عالمى زمانها ـ قاله السدّىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ » أى اعبديه شكراً على اصطفائه « وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » أى لتزدادى بكثرة السجود والصلاة قرباً . قال البقاعىّ : الظاهر أن المراد بالسجودهنا ظاهره، وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدى مصلية ، ولتكن صلاتك مع المصلين، أى فى جماعة ، فإنك فى عداد الرجال لما خصصت به من الكمال . ثم قال: وإنما قلت هذا لأنى تتبعت التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع فى صلاة إبراهيم ولا من بعده من الأنبياء عليهم السلام، ولا أتباعهم إلا فى موضع واحد، لا يحسن جعله فيه على ظاهره . ورأيته ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول ـ إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثانى ـ إطلاق لفظ السجود مجرداً ، والثالث ـ إطلاقه مقروناً بركوع أو حبو أو خرور على الوجه . ونحو ذلك . ثم ساق البقاعىّ ما وقع من النصوص فى ذلك . وقال بعد : فالذى فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعل هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك ، وحينئذ يسمى صلاة . وإلا كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم . وذلك موافق للغة ، قال فى القاموس : سجد خضع ، والخضوع التطامن ، وأما المكان الذى ذكر فيه الركوع فالظاهر أن معناه فعل الشعب كله ساجداً لله ، لأن الركوع يطلق فى اللغة على معان ، منها الصلاة يقال : ركع أى صلى ، وركع إذا انحنى كثيراً ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره لأنه لا يمكن فى حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن تأويل مما ذكرته

فى الركوع ـ والله أعلم ـ واحتججت باللغة لأن مترجم نسخة التوراة ، التى وقعت لى ، فى عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها . على أنى سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البغوىّ صرح فى قوله تعالى . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(١) . بأن صلاتهم لا ركوع فيها، وكذا ابن عطية وغيرهما . انتهى كلام البقاعىّ .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الجماعة مطلوبة فى الصلاة ، وعلى أن المرأة تندب لها الجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ماسبق « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » أى من الأنباء المغيبة عنك « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » مطابقاً لما فى كتابهم . وتذكير الضمير فى « نُوحِيهِ » بجعل مرجعه ذلك « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » أى وما كنت معايناً لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على جهة القرعة « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بسببها تنافساً فى كفالتها . وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردنّ واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم . فأيهم ثبت فى جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ، فإنه ثبت ، ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء ـ والله أعلم ـ قال أبو مسلم : معنى يلقون

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٣] ونصها : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

أقلامهم ، مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى : فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١) ، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً . وقال السيوطيّ في (الإكليل) : هذه الآية أصل في استعمال القرعة عند التنازع . وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أنه يجوز التخاصم لطلب الفضل حتى يتميز واحد بمزية ، ودلت على أن التميز يحصل بالقرعة في الأمر الملبس .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها ، وهو موهوم ؟ قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي ، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ(٢) ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ(٣) ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ(٤) ـ انتهى ـ وبالجملة، فالنفي تقرير وتحقيق لكون تلك الأنباء وحياً على طريقة التهكم بمنكريه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤١].

(٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

(٣) [٢٨ / القصص / ٤٦] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » شروع فى قصة عيسى عليه السلام « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ » أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب « اسْمُهُ » ذكّر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر . أى اسمه الذى يميزه لقباً «الْمَسِيحُ» وعلماً «عِيسَى» معرب يسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلّص) ويرادفها (يشوع) بالمعجمة ، إلا أنها عبرانية كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل. وفيها أن المسيح بمعنى الممسوح أو المدهون . قال البقاعيّ: وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلًا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح . انتهى . وإنما قال « ابْنُ مَرْيَمَ » مع كون الخطاب لها ، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين « وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى سيداً ومعظماً فيهما « وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى من الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ » فى محل النصب على الحال « وَكَهْلًا » عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلا و كهلا ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لا شك أنه غاية فى المعجز . وفى ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلا . والمهد الموضع الذى يهيأ للصبيّ ويوطأ لينام فيه . والكهل مَن وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى

الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابىّ : يقال للغلام مراهق ، ثم محتلم ، ثم يقال: تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته ، ثم مجتمع ، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. قال الأزهرىّ: وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته . وقوله تعالى « وَمِنَ الصَّالِحِينَ» قال ابن جرير: يعنى من عدادهم وأوليائهم . لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« قَالَتْ » مخاطبة لله الذى بعث إليها الملائكة « رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » أى لست بذات زوج « قَالَ كَذَٰلِكِ » أى على الحالة التى أنت عليها من عدم مس البشر « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولا يحتاج إلى سبب ، ولا يعجزه شيء . وصرح ههنا بقوله « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولم يقل (يَفْعَلُ) كما فى قصة زكريا ، لما أن الخلق المنبئ عن الإحداث للمكوّن أنسب بهذا المقام لئلا يبقى لمبطلٍ شبهة ، وأكد ذلك بقوله : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا (١) . « فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب كقوله : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٢) . أى إنما نأمر مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح البصر. وتقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة .

---

(١) [٣٦/يس/٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

(٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ » أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية « وَالْحِكْمَةَ » أى تهذيب الأخلاق « وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على (يعلّمه) أى ويجعله رسولا إلى جميع الإسرائيليين . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة « أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ » معمول لـ(رسولا) لما فيه من معنى النطق . أى رسولا ناطقا بأنى قد جئتكم « بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالاً أى متلبسا ومحتجاً بآية « أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ » الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل لهيأة الطير « فَيَكُونُ طَيْرًا » حقيقياً ذا حياة « بِإِذْنِ اللَّهِ » أى أمره، لا باستقلال منى « وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ » الذى ولد أعمى « وَالْأَبْرَصَ » المبتلى بالبرص وهو بياض يظهر فى البشرة لفساد مزاج . وفى (الإكليل) : هذه الآية أصل لما يقوله الأطباء : إن الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص لا يمكن برؤهما كإحياء الموتى « وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ » لا باستقلال منى . نفياً لتوهم

الألوهية ، فهذه معجزات قاهرة فعلية « وَأُنَبِّئُكُمْ » أى أخبركم « بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَاتَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » مما لم أعاينه « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى دلالة « لَكُمْ » على صدق فى دعوى الرسالة « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » مصدقين بآيات الله . وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام ردّ بصر أعميين فى كفرناحوم ، وأعمى فى بيت صيدا ، ورجل ولد أعمى فى أورشليم ، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة ، وأبرأ أبرص فى كفرناحوم ، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين، وأحيا ابنة جيروس فى كفرناحوم ، والعازر فى بيت عينا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

« وَمُصَدِّقًا » حال معطوفة على قوله (بآية) أى جئتكم بآية ومصدقاً « لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » أى مقرراً لها ومثبتاً «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين. ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ »[1]. والله أعلم ـ انتهى ـ أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبوت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسألوه : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

ولا يمسكه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الخروف ؟ فإذن يحل فعل الخير فى السبوت ، ثم أبرأ ذلك المريض ـ كذا فى الأصحاح الثانى عشر . من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى ـ وفيه فى الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل ـ انتهى ـ وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ومَن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفعه عنهم ، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشىء منه ، وأغناهم بشريعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذى جاء لإكماله المسيح . فمما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة فى الناموس الموسوى" ، فنسخت حرمتها فى الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس ، إذ قال لهم : لاشىء نجس العين . كما فى رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكماً أبدياً فى الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملا واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة فى التوراة ، ومنه حكم الختان الذى كان أبدياً فى شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنى ، كما بيّن فى (إظهار الحق) ، فى الباب الثالث فى إثبات النسخ . وقد أسلفنا جملة جليلة فى هذا الشأن فى سورة البقرة عند قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا[1] . فانظرها . « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ » .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٥] ونصها : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

« إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا » أى ما آمركم به « صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ » أى من بنى إسرائيل « الْكُفْرَ » أى علمه ووجده منهم « قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ » جمع نصير. والجار متعلق بمحذوف وقع حالا. أى من أنصارى متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » وهم طائفة من بنى إسرائيل انتدبت للإيمان بالمسيح عليه السلام فوازروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ـ جمع حوارىّ ـ وهو الناصر أو المبالغ فى النصرة والوزير والخليل والخالص كما فى (التوشيح) « نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى أنصار دينه ورسوله « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى منقادون لرسالتك . ولما أشهدوه عليه السلام أشهدوا الله تعالى الآمر بما أنزل من الإيمان به وبأوامره فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ » فأشهدناك على ما نحن عليه من تصديقنا دعواه « فَاكْتُبْنَا » أى جزاء على إشهادنا إياك « مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك . وهم المتقدمون فى آية (شَهِدَ اللَّهُ) أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم .

لطيفة :

جاء فى إنجيل متى فى الأصحاح العاشر مايأتى :

(١) ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضُعف .

(٢) وأمّا أسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه . الأول سِمْعَانُ الذى يقال له بُطْرُسُ وأندراوُسُ أخوه . يعقوب بن زَبْدِى ويُوحَنَّا أخوه.

(٣) فِيلُبُّسُ وبَرْثُولَمَاوُسُ . تُومَا ومَتَّى العَشَّارُ . يعقوب بن حَلْفَى ولَبَّاوُسُ الملقب تَدَّاوُسَ .

(٤) سِمْعَانُ القانَوِىّ ويهوذا الإسْخَرْيُوطِىُّ الذى أسلمه .

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام. لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذى جاء به ، فبذلوا الجهد فى بثه وانتشاره وإقامته ، إلى أن جاء بولس فسلبهم، بخداعه، دين المسيح الصحيح ، فلم يسمعوا له بعد من خبر ، ولا وقفوا له على أثر ، وطمس لهم رسوم التوراة ، وحلل لهم كل محرم ، كما بين ذلك فى غير هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَمَكَرُوا » أى الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هموا بالفتك به وإرادته بالسوء ، حيث تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملكهم « وَمَكَرَ اللهُ » أى بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم « وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أى أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيداً ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لايحتسب . وقال البقاعىّ كغيره فى قوله تعالى (وَمَكَرَ اللهُ) : أى بأن رفعه إليه. وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه ، وإنما صلبوا أحدهم ، ويقال إنه الذى دلهم ، وأما هو عليه السلام ، فصانه عنده بعد رفعه

إلى محل أوليائه وموطن قدسه ، لينزله فى آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر ، فكان تدميرهم فى تدبيرهم ، ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ » أى مستوفى مدة إقامتك بين قومك. والتوفى، كما يطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما فى كتب اللغة. ولو ادعى أن التوفى حقيقة فى الأول، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام بأتباعه وانتهاء مدته القدرة بينهم بسلب الحياة . وهذا الوجه ظاهر جدا ، وله نظائر فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا(١) . قال الزمخشرىّ : يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ(٢) . حيث لا يميزون ولا

(١) [٣٩/ الزمر/ ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك ـ انتهى كلامه ـ ثم بين سبحانه فى بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال : « وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مكرهم وخبث صحبتهم ؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً(١) . وقوله تعالى : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٢) . وقوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ(٣) . وقوله تعالى: ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(٤) . وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبىّ فى كتاب (العلوّ) . قال أبو الوليد بن رشد فى (مناهج الأدلة) : لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبى المعالى ومن اقتدى بقوله ـ إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على أن الله فى السماء ، وأن منه تتنزل الملائكة بالوحى إلى النبيين ، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبىّ ﷺ . وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة فى السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول . وبيّن بطلان الشبهة التى لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم ـ إلى أن قال : فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل . وأن إبطاله إبطال الشرائع. قال الدارمىّ: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته . وقد بسط نصوصَ السلف الحافظُ الذهبىّ فى كتاب (العلوّ) فانظره ،

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٥] ونصها : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

(٤) [٦٧ / الملك / ١٦] .

هذا ، ولما كان لذوى الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال، بشره تعالى فى ذلك بما بشره فقال « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ثم فسر الحكم الواقع بين الفريقين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

«وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» أى يبغضهم ، فإن هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات ، جارية مجرى الحقيقة .

القول فى تأول قوله تعالى تعالى :

[٥٨] (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وهو مبتدأ وخبره «نَتْلُوهُ عَلَيْكَ » أى من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . وقوله تعالى « مِنَ الْآيَاتِ » حال

من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر « وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » أى المشتمل على الحكم، أو المحكم المعصوم من تطرق الخلل إليه، والمراد به القرآن .

تنبيه :

فى قوله : إِنِّى مُتَوَفِّيكَ . وجوه فى التأويل كثيرة ، إلا أن الذى فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم ، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا ، لإفادتها وفاته عليه السلام ، أى بالصلب ، ثم رفعه إلى السماء أعنى قيامه حياً بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن فى أول ساعة من ليلة السبت ، وأقام فى القبر إلى صبيحة الأحد ، ثم انبعث حياً وتراءى للنسوة اللائى جئن إلى قبره زائرات . وقد استندوا فى هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع ، وشهادة تلاميذه الشفاهية فى العالم ، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً . ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه فى معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب . وقد بين علماؤنا بطلان معتقدهم هذا فى تآليف وتحارير فانظره فى (حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى » أى شأنه العجيب فى إنشائه بالقدرة من غير أب « عِندَ اللهِ »أى فى تقديره وحكمه « كَمَثَلِ ءَادَمَ » أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » جملة مفسرة للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما. وحسم لمادة شبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه السلام بغير أب وأم ، مما لا يكاد يصح ـ قاله أبو السعود ـ وقوله (خَلَقَهُ) أى صور

جسد آدم من تراب ثم قال له (كن) أى بشراً كاملاً روحاً وجسداً فإن أمره تعالى يفيد قوة التكون. قال البقاعىّ : وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى (فيكون) دون الماضى ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن المعنى عليه حكايةً للحال وتصويراً لها إشارةً إلى أنه كان الأمر من غير تخلف ، وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الآمر أصلاً كما تقدم التصريح به فى آية : إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .

لطيفة :

قال الرازىّ : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :

الأول ـ ليكون متواضعاً ، الثانى ـ ليكون ستاراً ، الثالث ـ ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً[1] . الرابع ـ أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التى هى أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق آدم من التراب الذى هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، الخامس ـ خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب ـ انتهى ملخصاً ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى الذى قصصنا عليك من نبأ عيسى الحق ، وقيل : الحق مبتدأ ، والظرف خبر ، أى الحق المذكور . وقيل : الحق فاعل لمضمر ، أى جاءك الحق. وفى (الحق) تأويلان : الأول ـ قال أبو مسلم : المراد أن هذا الذى أنزلتُ

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لا ما قالت النصارى واليهود . فالنصارى قالوا إن مريم ولدت إلهاً ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فالله تعالى بيّن أن هذا الذى أنزل فى القرآن هو الحق . ثم نهى عن الشك فيه .

والقول الثانى ـ أن المراد أن الحق فى بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل ، وهو قصة آدم عليه السلام ، فإنه لا بيان أقوى منها . والله أعلم .

« فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » خطاب إما للنبىّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التهييج لزيادة الثبات ، أو لكل سامع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

« فَمَنْ حَاجَّكَ » أى جادلك من النصارى بإيراد حجة « فِيهِ » أى فى شأن عيسى زعماً منهم أنه ليس على الشأن المتلوّ « مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى الذى أنزلناه إليك، وقصصناه عليك فى أمره . وللفاضل المهايمىّ فى هذه الآية أسلوب لطيف فى التأويل حيث قال (الْحَقُّ) أى الثابت الذى لا يقبل التأويل جاء (مِنْ رَبِّكَ) الذى رباك بالاطلاع على الحقائق (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) بما ورد فى الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله فإنه إطلاق مجازىّ لأنه لما حدث منه كان كأبيه. وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام (فَمَنْ حَاجَّكَ) أى جادلك (فِيهِ) لإثبات ابنيته بظواهر الإنجيل (مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) القطعىّ الموجب لتأويله . « فَقُلْ » لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة « تَعَالَوْا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يُعرف فيه علوّ الحق وسفول

الباطل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ » أى يدع كل منه ومنكم نفسه ، وأعزة أهله ، وألصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ويحارب دونهم ، ويحملهم على المباهلة « ثُمَّ نَبْتَهِلْ » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد فى دعاء اللعنة « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ » أى إبعاده وطرده « عَلَى الْكَاذِبِينَ » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين ، فلا يبقى العناد الباقى عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاشانىّ : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله فى العالم العنصرىّ ، فيكون انفعال العالم العنصرىّ منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر فى أحوال المعشوق ، وغير ذلك من تحرك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم . وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيآت أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسىّ به كان تأثيرها فى العالم عند التوجه الاتصالىّ تأثير ما يتصل به ، فتنفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد . ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف ، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت الموادعة بقبول الجزية؟

الثانى ـ قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر ، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثِمَالُهُمْ وصاحب رحلهم واسمه الأيهم ؛ وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفى القصة أن النبىّ ﷺ لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : ياأبا القاسم!

دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى ! لقد عرفتم إن محمداً لنبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه لَلاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفو إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، فلم يلاعنهم ﷺ ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبيّ عن جابر قال : قدم على النبيّ ﷺ العاقب والطيّب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فغدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد عليّ وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق ، لوقالا: لا، لأمطر عليهم الوادى ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ... الآية ـ قال جابر : أنفسنا وأنفسكم: رسول الله ﷺ وعليّ بن أبى طالب ، وأبناؤنا : الحسن والحسين ، ونساؤنا : فاطمة ، وهكذا ـ رواه الحاكم فى مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال.

وقد رواه أبوداود الطيالسيّ عن شعبة عن المغيرة عن الشعبيّ مرسلًا ، وهذا أصح .

وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخاريّ(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧٢ ـ باب قصة أهل نجران .

رجلًا أميناً، ولاتبعث معنا إلا أميناً. فقال : لأبعثن معكم رجلًا أميناً، حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة . ورواه مسلم والنسائي أيضاً وغيرهم .

وروى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : قال أبو جهل ـ قبحه الله ـ : إن رأيت محمداً يصلّي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا .

قال ابن كثير : وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة في (زاد المعاد) وأعقبها بفصل مهم في فقهها . فليراجع .

الثالث ـ قال الزمخشري : فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب. ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مُفَدَّوْن بها . وفيه دليل ، لا شيء أقوى منه، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ . لأنه لم يروِ أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، حديث ٢٢٢٥ (طبعة المعارف) .

الرابع ـ استنبط من الآية جواز المحاجة فى أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلته اقتداء بما أمر به ﷺ. والمباهلة الملاعنة .

قال الكازرونىّ فى تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدوانىّ قدس الله سره فى جواز المباهلة بعد النبىّ ﷺ ، فكتب رسالة فى شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا فى أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعى فى إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان فى تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيّم، رحمه الله، من خالفه فى مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة . وتمام هذه القصة مذكور فى أول كتابه المعروف بـ (النونية) ـ انتهى ـ وقد ذكر فى (زاد المعاد) فى فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السنّة فى مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعىّ سفيانَ الثورىّ فى مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

« إِنَّ هَـٰذَا » أى المتقدم من شأن عيسى عليه السلام « لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » الذى

obeikandi.com

لا معدل عنه ، دون أقاصيص النصارى . والقصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها . فى معنى قصّ الأثر، وهو اتباعه ، حتى ينتهى إلى محل ذى الأثر ـ أفاده الحرالىّ ـ .

قال البقاعىّ : ولما بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلّاً على ذلك بأنه الحىّ القيّوم صريحاً، ختم ذلك إشارة وتلويحاً فقال، عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى عبد الله ورسوله ، مُعمّماً للحكم: « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ » فصرح فيه بـ (من) الاستغراقية ، تأكيداً للرد على النصارى فى تثليثهم « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فلا يشاركه أحد فى العزة والحكمة، ليشاركه فى الألوهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيّرة « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » أى بهم فيجازيهم على إفسادهم . والتعبير عنهم بذلك إشارة إلى أنهم، بتوليهم ، مفسدون اعتقادهم واعتقاد غيرهم فى الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك ، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى « أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » أى لا نرى غيره مستحقّاً للعبادة فنشركه معه ، بل نفرد العبادة لله وحده ، لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(١) .
وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(٢) .
« وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا » أى كعزير والمسيح والأحبار والرهبان الذين كانوا يحلّون لهم ويحرّمون ، كما روى الترمذىّ(٣) عن عدىّ بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

قال الكيا الهراسىّ : فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعىّ ،وعلى من قال: يجب قبول قول الإمام فى التحليل والتحريم ولو دون إبانة مستند شرعىّ .

قال البقاعىّ : ولما كان الرب قد يطلق على المعلم والمربّى بنوع تربيةٍ ، نبه على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد والاجتراء على ما يختص به الله فقال : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » الذى اختص بالكمال « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن هذه الكلمة السواء المتفق عليها « فَقُولُوا » أى تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وامتثالاً لوصيته إذ قال: وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرها : اعترف بأنى أنا الغالب ، وسلم لى الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .
(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : . . . ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .
(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ١٠ـ حدثنا الحسن ابن مرثد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ » أى تجادلون فيه فيدعيه كل من فريقكم « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ » أى المقرِّر كل منهما لأصل دين منتحلِهِ منكم « إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ » أى الأشخاص الحمق « حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر محمد ﷺ إذ له ذكر فى كتابكم فأمكنكم تغييره لفظاً ومعنى ، أو من أمر موسى وعيسى عليهما السلام، أو مما نطق به التوراة والإنجيل « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر إبراهيم لكونه لم يذكر فى كتابكم بما حاججتم ، فلا يمكنكم فيه التغيير « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » فيبيّنه لنبيّه « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا » أى كما ادعى اليهود « وَلَا نَصْرَانِيًّا » كما ادعى النصارى « وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» سبق معنى الحنيف عند قوله تعالى : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً. فى البقرة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بأنهم مشركون بقولهم : عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، وردٌّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ » أى أخصهم به وأقربهم منه . من (الْوَلْيِ) وهو القرب « لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ » أى فى دينه من أمته وغيرهم «وَهَـٰذَا النَّبِيُّ» يعنى خاتم الأنبياء محمداً ﷺ « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » به فعملوا بشريعته الموافقة لشريعة إبراهيم « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » بالنصر والمعونة والمحبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

« وَدَّتْ » أى تمنت « طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » أى وما يتخطاهم الإضلال، ولا يعود وباله إلا عليهم، إذ يضاعف به عذابهم « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى أن وزره خاص بهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ[١] . وقوله : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً[٢] .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٤ / النساء / ٨٩] ونصها: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أى المنزلة على محمد ﷺ « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى تعلمون حقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة « وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى الذى لا يقبل تمويهاً ولا تحريفاً « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى عالمين بما تكتمونه من حقيته وقد كانوا يعلمون ما فى التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس فى ذلك ، كدأبهم فى غيره . وفى الآية دلالة على قبح كتمان الحق ، فيدخل فى ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة ؛ وعلى قبح التلبيس . فيجب حل الشبهة وإبطالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ » أى أوله « وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » هذه الآية حكاية لنوع آخر

= سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

obeikandi.com

من تلبيساتهم . وهى مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم . فيظن الضعفاء أنه لاغرض لهم إلا الحق ، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد ، وهم أولو علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم ، ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الإسلام كما رجعتم .

لطيفة :

قال الرازىّ : الفائدة فى إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول ـ أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى ـ أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف .

الثالث ـ أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » من تتمة كلامهم أى ولا تصدقوا إلا نبياً تابعاً لشريعتكم، لامن جاء بغيرها ، أو ولاتؤمنوا ذلك الإيمان المتقدم، وهو إيمانهم وجه النهار، إلا لأجل حفظ أتباعكم وأشياعكم وبقائهم على دينكم « قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ » أى الذى هو

الإسلام وقد جئتكم به ، وما عداه ضلال فلا ينفعكم فى دفعه هذا الكيد الضعيف ولا تقدرون على إضلال أحد منا بعد أن هدانا الله . ثم وصل به تقريعهم فقال « أَنْ » بمد الألف على الاستفهام، فى قراءة ابن كثير . وتقديرها فى قراءة غيره. أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ماقلتم ودبرتموه ألأن « يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » من الشرائع والعلم والكتاب، « أَوْ » كراهة أن « يُحَاجُّوكُمْ » أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحكم « قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ » أى بإنزال الآيات وغيرها « بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » فلا يمكنكم منعه « وَاللهُ وَاسِعٌ » كثير العطاء « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » فيزيده فضلا عليكم « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً » بالمطالبة والترافع وإقامة البينة ، فلا يبعد منه الخيانة مع الله بكتمان ما أمر بإظهاره طمعاً فى إبقاء الرئاسة والرشا عليه. ثم استأنف علة الخيانة بقوله « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب عقاب ومؤاخذة

فهم يخونون الخلق « وَيَقُولُونَ » أى فى الاعتذار عنه « عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » بادعائهم ذلك وغيره فيخونونه أيضا « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنه كذب محض وافتراء لتحريم الغدر عليهم. كما هو فى التوراة . وقد مضى نقله فى البقرة فى آية : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا[1]. فارجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » اعلم أن (بلى) إما لإثبات مانفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل، فالوقف حينئذ على (بلى) وقف التمام ، وقوله « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ » جملة مقررة للجملة التى سدت (بلى) مسدّها ؛ وإما لابتداء جملة بلا ملاحظة كونها جواباً للنفى السابق ، فإن كلمة (بلى) قد تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعدها ـ كما نقله الرازىّ ـ وهذا هو الذى أرتضيه . وإن اقتصر الكشاف ومقلدوه على الأول . وقد ذكروا فى (نعم) أنها تأتى للتوكيد إذا وقعت صدرا. نحو : نعم هذه أطلالهم ، فلتكن (بلى) كذلك ، فإنهما أخوان ، وإن تخالفا فى صور ، وعلى هذا فلا يحسن الوقف على (بلى). والضمير فى « بِعَهْدِهِ » إما لاسم (الله) فى قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » على معنى إن كل من أوفى بعهد الله واتقاه فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه . وإما لـ« مَنْ أَوْفَىٰ » على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقاه فإنه يحبه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فهذا عام. يخيل أنه ولو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل. لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم فى كتابهم من الإيمان برسولٍ مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله فى ترك الخيانة لاتقوه فى ترك الكذب على الله وتحريف كلمه ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » أى يستبدلون « بِعَهْدِ اللهِ » أى بما أخذهم عليه فى كتابه. أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم « وَأَيْمَانِهِمْ » أى التى عقدوها بالتزام متابعة الحق على ألسنة الرسل « ثَمَناً قَلِيلاً » من الدنيا الزائلة الحقيرة التى لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ » أى لا نصيب ثواب « لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أى ولا يثنى عليهم كما يثنى على أوليائه ، أو لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى بالنار.

واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن من نقض عهداً لله لغرض دنيوىّ، أو حلف كاذباً ، فإنه قد ارتكب كبيرة .

الثانية ـ فى الجمع بين قوله تعالى هنا : وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ . وقوله : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(١). قال القفال: المقصود من هذه الآية بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩٢] .

كلامَه فإنما ذلك بسخطٍ عليه ، وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أكلمك . وقد يأمر بحجبه عنه ، ويقول: لاأرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب ، نعوذ بالله منه . ومنهم من قال : لايبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءَه كلامَه بغير سفير تشريفاً عالياً يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرةَ والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة . ومنهم من قال : معنى الآية لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والكل حسن .

الثالثة ـ روى الشيخان[(١)] عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان. قال عبدالله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عزوجل: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وفي رواية قال : من حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق ذلك : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... الآية . فدخل الأشعث بن قيس الكندي فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا : كذا وكذا ، فقال : صدق ، فيّ نزلت ، كان بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : شاهداك أو يمينه ، قلت : إنه إذاً يحلف ولا يبالي ، فقال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية .

وأخرجه الترمذي وأبوداود وقالا : إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودي .

---

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٣ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ .

ومسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٢٠ و٢٢١ (طبعتنا) .

وروى البخاريّ[١] عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلًا أقام سلعة وهو في السوق. فحلف بالله لقد أُعطي بها مالم يُعْطَهُ، ليوقع فيها رجلًا من المسلمين ، فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ...إلى آخر الآية . وقدمنا في مقدمة التفسير، في بحث سبب النزول ، وفي سورة البقرة أيضاً عند آية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[٢]، ما يعلم به الجمع بين مثل هذه الروايات، وأنه لا تنافي . فتذكَّرْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى عن اليهود ، عليهم لعائن الله ، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وقال مجاهد والشعبيّ والحسن وقتادة والربيع بن أنس : يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٣ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ =

بِالْكِتَابِ. يحرفونه. وهكذا روى البخاري عن ابن عباس[1] أنهم يحرفون: ويزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله .

وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منها حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول. رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش. وهو من باب تفسير المعرّب المعبِّر ، وفهمُ كثير منهم فاسد ؛ وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء ـ انتهى ـ وقد قدمنا الكلام على ذلك في مقدمة التفسير عند الكلام على الإسرائيليات، وفي سورة البقرة أيضاً عند قوله تعالى[2]: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللهِ .. الآية فليراجع .

ولما بين تعالى كذبهم عليه ـ جل ذكره ـ بين افتراءهم على رسله إذ زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه رباً ، فردّ سبحانه عليهم بقوله :

= يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

(٢) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ » أى ماصح ولا استقام . وفى التعبير بـ« بشر » إشعار بعلة الحكم ، فإن البشرية منافية لماافتروه عليهم « أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ » أى الفهم والعلم أو الحكمة « وَالنُّبُوَّةَ » وهى الخبر منه تعالى ليدعو الناس إلى الله بترك الأنداد « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » أى الذين بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى عبادته وحده « كُونُوا عِبَادًا لِى » أى اتخذونى ربًّا « مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ » يقول لهم « كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أى منسوبين إلى الرب لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله . أى كونوا عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات ، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة ـ أفاده القاشانىّ ـ « بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » أى بسبب مثابرتكم على تعليم الناس الكتاب ودراسته، أى قراءته. فإن ذلك يجركم إلى الله تعالى بالإخلاص فى عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ » أى بالعود إليه وقد بعث لمحو الشرك « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى بعد استقراركم على الإسلام .

obeikandi.com

تنبيهات :

الأول ـ إذا كان ما ذكر فى الآية لا يصلح لنبىّ ولا لمرسل، فَلأَنْ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم، بطريق الأولى والأحرى . ولهذا قال الحسن البصرىّ : لا ينبغى هذا لمؤمنٍ ، أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً ـ يعنى أهل الكتاب ـ كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال الله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ... الآية[1] ـ وفى جامع الترمذىّ[2] ـ كما سيأتى ـ أن عدىّ بن حاتم قال: يارسول الله ما عبدوهم . قال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم . فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ . بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغته إياه رسله الكرام ـ قاله ابن كثير ـ

الثانى ـ فى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . والدراسة مذاكرة العلم والفقه. فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًّا، فمن اشتغل بها، لا لهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها، ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ﷺ[3] : نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ـ كذا فى فتح البيان والرازىّ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

(٣) أخرجه مسلم فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث٧٣ =

الثالث ـ قرئ فى السبع « وَلَا يَأْمُرُكُمْ » بالرفع على الاستئناف أى ولا يأمركم الله أو النبيّ ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم. ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية. وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسى تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة فى تشهير أمره . ولا يمنعهم ماهم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ فى السبع بفتح اللام من : لِمَا ءَاتَيْتُكُمْ . وكسرها ، فعلى الأول هى موطئة للقسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و« مَا » حينئذ تحتمل الشرطية، و« لَتُؤْمِنُنَّ » سادّ مسد جواب القسم والشرط . وتحتمل الموصولة بمعنى « لَلَّذِى أَتَيْتُكُمُوهُ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ » وعلى الثانى ، أعنى كسر اللام ف « مَا » إما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفى قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : توكيد عليهم . ومن أمعن فى نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ فى شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فمع أممهم أولى . وقد روى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً، وهو حىّ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضادّ ماقاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علىّ وابن عباس ـ انتهى ـ

ومن أثر علىّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبينا ﷺ كما نقل القاضى عياض فى (الشفاء) عن أبى الحسن القابسىّ قال : استخص الله تعالى محمداً بفضلٍ لم يؤته غيره أبانه به . وهو ما ذكره فى هذه الآية ـ انتهى ـ وقد علمت المراد .

بقى أن الإمام أبامسلم الأصفهانىّ ذهب إلى أن فى قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أممهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجاب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك[1] ، وقد علم الله تعالى أنه لايشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، فكذا هنا. وقال:وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] وقال في صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[3] مع أنه تعالى أخبرعنهم بأنهم: لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ[4] وبأنهم: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ[5] . فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا ههنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولى ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك،

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .

وقد ذكر تعالى على سبيل الفرض والتقدير فى قوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ فكذا ههنا ـ نقله الرازىّ ـ .

ولما بين تعالى أن الإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم شرعُ شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً ديناً غير دين الله . فلهذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » أى استسلم له من فيهما بالخضوع والانقياد لمراده والجرى تحت قضائه ، كما قال تعالى : وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) . وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٢) . وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣) . فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم له كرها. فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع ـ أفاده ابن كثير « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ، والجملة سيقت للتهديد والوعيد .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٩] .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٤] ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

« قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » أى أولاد يعقوب « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كدأب اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » أى منقادون فلا نتخذ أربابا من دونه .

لطيفة :

نكتة الجمع فى قوله « ءَامَنَّا » بعد الإفراد فى « قُلْ » كون الأمر عامًّا ، والإفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه أصل فى ذلك . أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة. والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك .

ثانية :

عدى (أنزل) هنا بحرف الاستعلاء، وفى البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين. إذ الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسول ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر ، وقال صاحب (اللباب) : الخطاب فى البقرة للأمة لقوله : قُولُوا. فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً. وهنا قال (قل) ، وهو خطاب للنبىّ ﷺ دون أمته ، فكان اللائق به (على) لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيها .

وفيه نظر ، لقوله تعالى : ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا[1] ـ أفاده النسفىّ ـ.

(١) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَمَنْ يَبْتَغِ » أى يطلب « غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً » أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى . كدأب المشركين صريحاً. والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين. « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » لأنه لم ينقد لأمر الله . وفى الحديث الصحيح[1] : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ « وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » لضلاله وجوه الهداية فى الدنيا .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع ، واقع فى الخسران ، بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها . وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استبعاد لأن يرشدهم الله للصواب ويوفقهم . فإن الحائد عن الحق، بعد ما وضح له، منهمك فى الضلال ، بعيد عن الرشاد. وقيل: نفى وإنكار له ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

= بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢٠ ـ باب إذا أخطأ العامل أو الحاكم.

طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ. والمعنىُّ بهذه الآية إما أهل الكتاب والمراد كفرهم بالرسول ﷺ حين جاءهم، بعد إيمانهم به قبل مجيئه، إذ رأوه فى كتبهم وكانوا يستفتحون به على المشركين. وبعد شهادتهم بحقية رسالته لكونهم عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، وجاءهم البينات على صدقه التى آمنوا لمثلها ولما دونها بموسى وعيسى عليهما السلام. فظلموا بحقه الثابت ببيناته وتصديقه الكتب السماوية . وإما المعنىُّ بالآية من ارتدّ بعد إيمانه. على ماروى فى ذلك كما سنذكره. ثم بين تعالى الوعيد على كلٍّ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

« أُولَٰئِكَ » أى الموصوفون بما تقدم « جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ » أى طرده وغضبه « وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » المراد بالناس إما المؤمنين أو العموم ، فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ، فقد لعن نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« خَالِدِينَ فِيهَا » أى فى اللعنة أو العقوبة أو النار ، وإن لم يجر ذكرهما لدلالة الكلام عليهما . والتخليد فى اللعنة على الأول بمعنى أنهم يوم القيامة لايزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم فى النار ، فلا يخلو شىء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعنٌ من هؤلاء ، أو بمعنى الخلود فى أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ(١) ـ أفاده الرازىّ ـ « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتذروا ، أولا ينظر نظر رحمة إليهم .

(١) [٢٠ / طه / ١٠٠و١٠١] ... وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الكفر بعد الإيمان « وَأَصْلَحُوا » أى وضمّوا إلى التوبة الأعمالَ الصالحة . وفيه أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم . وهذا من لطفه وبره ورأفته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه . وقد روى ابن جرير[1] عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأرسل إليه قومه فأسلم . وهكذا رواه النسائىّ والحاكم وابن حبان . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال[2] : جاء الحرث بن سُوَيد فأسلم مع النبىّ ﷺ ، ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ . قال فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحرث : إنك والله، ما علمتُ ، لصَدُوقٌ ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة . قال : فرجع الحرث فأسلم فحسن إسلامه .

قال ابن سلامة : فصارت فيه توبة ، وفى كل نادم إلى يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية . ثمرة الآية جواز لعن الكفار ، وسواء كان الكافر معيّناً

(١) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٠
والنسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ١٥ ـ باب توبة المرتد .

(٢) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٣

أوغير معيّن ، على ظاهر الأدلة . وقد قال النووىّ : ظاهر الأحاديث أنه ليس بحرام . وأشار الغزالىّ إلى تحريمه إلا فى حق من أعلمنا الله أنه مات على الكفر. كأبى لهب وأبى جهل وفرعون وهامان وأشباههم . قال : لأنه لايدرى بما يختم له . وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم يجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر . وأما ما ورد فى الترمذىّ[1] عنه ﷺ : ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذىّ . فقيل : اللعان مثل الضرّاب للمبالغة، والمعنى لا يعتاد اللعن حتى يكثر منه . ومن ثمرات الآية صحة التوبة من الكافر والعاصى بالردة وغيرها ، وذلك إجماع. إلّا توبة المرتد ففيها خلاف شاذ . فعند أكثر العلماء أن توبته مقبولة لهذه الآية وغيرها . وعند ابن حنبل لا تقبل توبته ـ رواه عنه فى (شرح الإبانة) قيل وهو غلط. لهذه الآية ولقوله تعالى فى سورة النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا[2]. فأثبت إيماناً بعد كفر تقدمه إيمان . ولو تكررت منه الردة صحت توبته أيضاً عند جمهور العلماء، لقوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ[3]. وقال إسحق بن راهويه: إذا ارتد فى الدفعة الثالثة لم تقبل توبته بعد ذلك. أى لظاهر آية النساء ـ انتهى ـ قلت : وفى (زاد المستقنع) و (شرحه) : من فقه الحنابلة ما نصه : ولا تقبل توبة من تكررت ردته بل يقتل . لأن ذلك يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام ـ انتهى ـ وهو قريب من مذهب إسحق . وحكى فى (فتح البارى) مثله عن الليث وعن أبى إسحق المروزىّ من أئمة الشافعية .

---

(١) الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٨ ـ باب ما جاء فى اللعنة .

(٢) [٤ / النساء / ١٣٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

(٣) [٨ / الأنفال / ٣٨] . . . وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » أى الذين ضلوا سبيل الحق وأخطأوا مناهجه . وقد أشكل على كثير قوله تعالى « لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما فى الآية قبلها ، وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ(١) . وغيرذلك . فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت. قال الواحدىّ فى(الوجيز) : لن تقبل توبتهم لأنهم لايتوبون إلاعند حضور الموت، وتلك التوبة لا تقبل ـ انتهى ـ ، أى كما قال تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ(٢) الآية . وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لايتوبون. كقوله : أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٣) . وإنما كنى بذلك تغليظاً فى شأنهم وإبرازاً لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقى للمفسرين وجوه أخرى ، هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

(١) [٤٢/الشورى/ ٢٥] . . . وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

(٢) [٤/ النساء / ١٨] . . . قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و [٣٦ / يس / ١٠] ونصها : وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا[1] الخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحق وأحمد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه فى الكفر . وقد أشار القاشانىّ إلى أن هـذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان فى باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا : أنكر تعالى هدايته لقوم قد هداهم أولًا بالنور الاستعدادىّ إلى الإيمان ثم بالنور الإيمانىّ إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم (كذا) . وانضم إليه الاستدلال العقلىّ بالبينات ، ثم ظهرت نفوسهم بعد هـذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثتها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأمارة عليهم الذى هو غاية الظلم فقال : وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم فى البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان : قسم رسخت هيأة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا فى الغى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول ؛ وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم رَيْناً ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستحيوا بحكم غريز العقول. فأشار إلى القسم الأول بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى آخره ، وإلى الثانى بقوله : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٨٨٣ .

وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » هذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) . وقد روى الإمام أحمد والشيخان(٢) عن أنس بن مالك أن النبىّ ﷺ قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أ كنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ! وفى رواية للإمام أحمد(٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! خير منزل ، فيقول: سل وتمنَّ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ـ لما يرى من فضل الشهادة ـ ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل. فيردّ إلى النار . ولهذا قال « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

فى قوله تعالى «وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ» قال صاحب الانتصاف : إن هذه الواو المصاحبة للشرط

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

(٢) أخرجه، فى قريب من هذا اللفظ، البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار .

ومسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، بالجزء الثالث ، صفحة ٢٠٨ (طبعة الحلبىّ) .

تستدعى شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة. والعادة فى مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى . مثاله : قولك أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ [(١)] . معناه ـ والله أعلم ـ لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو فى مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً. لان قوله : وَلَوْ افْتَدَى بِهِ . يقتضى شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى . وهذه الحال المذكورة ، وهى حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً ، هى حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الزمخشرى الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفى فيما عدا هذه الحالة أولى ؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله. فنقول : قبول الفدية التى هى ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها ـ أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . . . أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ومنها ـ أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى نفسى بكذا ـ وقد لا يفعل ـ

ومنها ـ أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلًا لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد فى الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً ، بأن يقدر على هـذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ، ومع ذلك لايقبل منه . فمجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثَمَّ أحوالًا أُخَر لاينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً فىقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] ـ والله أعلم ـ وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلىّ فى يدى هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولىّ التوفيق ـ انتهى ـ .

وثمت وجه ثان وهو أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به فى تلك الآية ، فالمعنى لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً فى كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة : تريد مثله . وقضية ولا أبا حسن لها ، أى ولا مثل أبى حسن . كما أنه يراد فى نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد: أنت . وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسدالآخر، فكانا فى حكم شيء واحد ، وعلى هذا الوجه يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل (ملء الأرض) أولًا على الافتداء بل على التصدق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى: لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وضمير « به » للمال من غير اعتبار وصف التصدق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ماينفعهم ويقبل منهم، إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر، وتلحقوا بزمرة الأبرار . بناءً على أن تعريف البر للجنس . أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته، إذا كان للعهد ، حتى تنفقوا فى سبيل الله تعالى مما تحبون، أى تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم ، كما فى قوله تعالى : أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ[(١)] ؛ وقد روى الشيخان[(٢)] عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاءَ وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٧] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب ، حديث ٧٧٦ .

ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

obeikandi.com

يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب . قال أنس : فلما أُنزلت هـذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسـول الله ﷺ : بخٍ بخٍ. ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت. وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه ـ (وبيرحا روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها والمد والقصر ، وهو اسم حديقة بالمدينة ـ وفى الفائق : إنها فَيْعَلَى من البراح ، وهو الأرض الظاهرة . وبخ بخ كلمة استحسان ومدح كررت للتأكيد ، ورابح بالموحدة أى ذو ربح ، وبالمثناة التحتية أى يروح عليك نفعه وثوابه) .

وفى الصحيحين(١) أن عمر قال : يا رسول الله ! لم أصب مالًا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة .

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » فذكرت ماأعطانى الله، فلم أجد شيئاً أحب إلىّ من جارية لى رومية ، فقلت: هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله ، لنكحتها. يعنى تزوجتها.

تنبيه :

قال القاشانىّ، فى هذه الآية : كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ، ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبرؤ عما سواه ، فمن أحب شيئاً فقد حجب عن الله تعالى به ، وأشرك شركاً خفيًّا، لتعلق محبته بغير الله ، كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ

---

(١) أخرجه فى المسند حديث ٥١٧٩ (طبعة المعارف) .

كَحُبِّ اللهِ[1] وآثر نفسه به على الله ، فقد بعد من الله بثلاثة أوجه. وهى محبة غير الحق ، والشرك ، وإيثار النفس على الحق ؛ فإن آثر الله به على نفسه وتصدق به وأخرجه من يده فقد زال البعد ، وحصل القرب ، وإلا بقى محجوباً ، وإن أنفق من غيره أضعافه ، فما نال براً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره .

« وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى فجازيكم عليه، قليلًا كان أو كثيرًا، جيدًا أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » قال الزمخشرى : المعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالًا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، وتحريم ماحرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم ، لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فتبعوه على تحريمه .

تنبيهات :

الأول ـ روى ، فيما حرمه إسرائيل على نفسه، أنه لحوم الإبل وألبانها ، رواه الإمام أحمد فى قصة ، والترمذى وقال : حسن غريب . وروى عن ابن عباس والضحاك والسدى وغيرهم موقوفاً عليهم أنه العروق . قالوا : كان يعتريه عرق النسا بالليل فيزعجه ، فنذر لئن عوفى لا يأكل عرقاً ، ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى إخراج العروق من اللحم

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

استنانا به ، واقتداء بطريقه . قال الرازى : ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بُرُدًا إلى أخيه عيسو إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه وقال : إن عيسو هو ذا يتلقاك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، وذكر القصة ، إلى أن ذكر الملك الذى لقيه فى صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ، ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فخدرت تلك العصبة وجفت ، فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق ـ انتهى ـ قلت : والقصة مسوقة فى سفر التكوين من التوراة فى الأصحاح الثانى والثلاثين .

الثانى : التحريم المذكور ، على الرواية الأولى، أعنى لحوم الإبل وألبانها ، فكان تبررًا وتعبدًا وتزهدًا وقهرًا للنفس، طلباً لمرضاة الحق تعالى. وعلى الثانية فإما وفاء بالنذر وإما تداوياً وإما لكونه يجد نفسه تعافه ـ والله أعلم ـ فالتحريم بمعنى الامتناع .

الثالث : قال الزمخشرى : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . إلى قوله تعالى : عَذَاباً أَلِيماً [1] وفى قوله : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إلى قوله: ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ [2] . وجحودَ ما غاظهم واشمأزوا منه ، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم . فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة

---

(١) [٤ / النساء / ١٦٠و١٦١] . . . وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . . . إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم ـ انتهى ـ .

« قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم أنه تحريم قديم . وفى أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم حادث لا قديم ، كما يدعونه ـ أعظمُ برهان على صدقه وكذبهم إذلم يجسروا على إخراج التوراة . فبهتوا وانقلبوا صاغرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَمَنِ افْتَرَىٰ » أى تعمد « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » أى فى أمر المطاعم وغيرها « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لتعرضهم إلى أن يهتكهم تعالى ويعذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » أى ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ . ومن آمن معه والتى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه « حَنِيفاً » أى مائلاً عن الأديان الزائغة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بما فى اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلهية عيسى، فكيف يزعمون أنهم على ملته ، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وهو الذى بُعِثَ به محمد ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » أى لنسكهم وعباداتهم « لَلَّذِى بِبَكَّةَ » أى للبيت الذى ببكة، أى فيها . وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى . وبكة لغة فى مكة ، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم (ضَرْبَة لازب ولازم) و (النميط والنَّبيط) فى اسم موضع بالدهناء ، وقولهم (أمر راتب وراتم) و (أغبطت الحمى وأغْمَطَت) . وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك لدقها أعناق الجبابرة ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من « بَكَّهُ » إذا فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كما أن مكة من « مَكَّهُ » أهلكه ونقصه . لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد وتنقص الذنوب أو تنفيها ـ كما فى القاموس ـ وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هى (ميشا) أو (ماسا) المذكورة فى التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ عن اسم واحد من أولاد إسماعيل وهو (مسّا) . « مُبَارَكًا » أى كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه ، واعتمره واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » لأنه قبلتهم ومتعبدهم.

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولاً فى الوضع والبناء ، ورووا فى ذلك آثاراً . منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها أنه تعالى بعث ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألفى عام. وليس فى هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد أول بيت وضع مسجداً . كما بيّنه رواية ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه فى هذه الآية قال : كانت البيوت قبله، ولكنه

أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفى الصحيحين[(١)] عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أىّ مسجد وضع فى الأرض أولُ ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال: أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّه . فإن الفضل فيه .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى. وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا المقدار ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

« فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » وهو الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت. قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى[(٢)]، وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الترغيب

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٠ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث ١٥٨٩ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١ (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً =

فى زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفه بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطيفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً . أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف سنة ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة (آية بينة) على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها فى قوة أن يقال « وأمن من دخله » فتكون، بحسب المعنى والمآل، معطوفة على مقام إبراهيم، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذُكِرَ من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ـ أفاده أبوالسعود ـ قال المهايمىّ: « فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ » رمى الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتعجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعا تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها . النازل منزلة الكل، مقام إبراهيم، الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت، كلما علا الجدار ارتفع الحجر فى الهواء ، ثم لين ، فغرقت فيه قدماه ، كأنهما فى طين ، فبقى أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره اه .

= وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ[١] ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا[٢] ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُطلب . وعن عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج عنه اه .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعىّ الذى وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . فى الصحيحين[٣] ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم فتح مكة[٤] : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتَهُ ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلالها . فقال العباس : يا رسول الله إلّا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلّا الإذخر . ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ؛

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . . . أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٢٧ ـ باب وجوب النفير ، حديث ٧١٠
ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة ، حديث ٧١٠ .
ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

ولهما[١]، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ، ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولًا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح : ماقال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك ياأباشريح. إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا بِخَرْبَةٍ[٢] .

قال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد)[٣] : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً ،هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

أحدها :

وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله، أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتَل لاسيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير. فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٧ ـ باب ليبلغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ ، حديث ٨٩ .

ومسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أي بسبب السرقة .

(٣) انظر الجزء الثاني ، صفحة ١٧٧ .

فى ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، فيقال له : هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعذ مِقْيَسَ بن صُبَابَة وابن خطل ومن سمى معهما لأنه فى تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلاًّ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب فى جاهليتها، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم فلا يهيجه ، وكان ذلك بينهم خاصةَ الحرم التى صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبىّ ﷺ أن من الأمة من يتأسى به فى إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك ، وعلى هذا فمن أتى حدًّا أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر مابدهته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبى فى الحرم ماهجته حتى يخرج منه ، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعىّ ولا صحابىّ خلافه . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعىّ إلى أنه يستوفى منه فى الحرم كما يستوفى منه فى الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص فى كل مكان وزمان، وبأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة[1] ، وبما يروى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٨ـ باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام ، حديث ٩٣٣ ونصه : =

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارًّا بدم ولا بخربة ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حدًّا أو قصاصاً لم يعذه الحرم ولم يمنع من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده ، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيح قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال[2] : خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم. فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة ـ وهي فسقهن ـ ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ

= عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغْفَر . فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال «اقتلوه».

(١) هذا القول ليس قوله صلى الله عليه وسلم وإنما هو قول عمرو بن سعيد . انظر الحاشية رقم ١ ص ٨٩٨ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ٧ ـ باب ما يقتل المحرم من الدواب ، ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب كلهنّ فاسق يُقتلن في الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

ومسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) .

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ[١] . وقوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ[٢] .

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: من دخله كان آمناً من النـار ، وقول بعضهم : كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فـكم ممن دخله وهو فى قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحـدود والقصاص فى كل زمان ومكان فيقال أولا : لا تعرض فى تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لايدل عليها بوضعه ، ولا بتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحـكم عليـه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول مَحَصِّلٌ إن قوله تعـالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ[٣] . مخصوص بالمنكوحة فى عدتها أو بغير إذن وليّها ، أوبغير شهود ، فهكذا النصوص العامة فى استيفاء الحدود والقصاص لاتعرض فيها لزمنه ولامكانه ولاشرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لئلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العـام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والمرضع والمريض الذى يرجى برؤه ، والحال المحرّمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فـما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها قلنا لـكم هذا الصاع

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . . . رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

سواءبسواء . وأما قتـل ابن خطل فقد تقدم أنه كان فى وقت الحل ، وإن النبيّ ﷺ قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله ﷺ : وإنما أحلت لى ساعة من نهار، صريح فى أنه إنما أحل له سفك دم حلال فى غير الحرم فى تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالًا فى كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهـذا صريح فى أن الدم الحلال فى غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيذ عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق ، يردّ به حـديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الـكعبيّ هذا الحديث ، كما جاء مبيناً فى الصحيح ، فـكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأما قولـكم : لوكان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعـذه الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونهـا ، ومن فرق قال سفك الدم إما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه فى الحرم تحريم مادونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجرى مجرى التأديب ، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها فى ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام فى الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يُقَم عليه الحد حتى يخرج منـه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها فى ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينا بينهما فى الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولـكم إن الحرم لا يعيذ من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فـكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل فى الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل فى الحرم أقيم عليه فى الحرم . وذكر الأثرم عن

ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً فى الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شىء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل فى الحرم فقال « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه:

أحدها :

أن الجانى فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجناية فيه، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه معظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .

الثانى :

أن الجانى فيه بمنزلة المفسد الجانى على بساط الملك فى داره وحرمه ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمه ثم دخل إلى حرمه مستجيراً .

الثالث :

أن الجانى فى الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمه فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع :

أنه لو لم يقم الحد على الجناة فى الحرم لعم الفساد وعظم الشر فى حرم الله ، فإن أهل الحرم كغيرهم فى الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد فى حق من ارتكب الجرائم فى الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .

والخامس :

أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمته .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم إنه حيوان مفسد فأبيح قتله فى الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمى فالأصل فيه الحرمة وحرمته

عظيمة ، فإنما أبيح لعارض فأشبه الصائل من الحيوانات المباحة من المأكولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضا فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعاذها الحرم لعظم عليهم الضرر بها ـ انتهى . (من الجزء الثانى من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٨٠) .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه أردفه بذكر إيجاب الحج فقال « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » اللام فى البيت للعهد. وحجه : قصده للزيارة بالنسك المعروف . وكسر الحاء وفتحها لغتان ، وهما قراءتان سبعيتان ، وفى الآية مباحث :

الأول :

فى إعرابها قال أبو السعود فى صدر الآية : جملة من مبتدأ هو « حِجُّ الْبَيْتِ » وخبر هو « لِلَّهِ » وقوله تعالى « عَلَى النَّاسِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار ، والعامل فيه ذلك الاستقرار ، ويجوز أن يكون « عَلَى النَّاسِ » هو الخبر ، و « لِلَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر . ثم قال فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فى محل الخبر على أنه بدل من « النَّاسِ » بدل البعض من الكل مخصص لعمومه، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف ، أى « من استطاع منهم » ، وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أى هم من استطاع ، وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى.

الثانى :

هذه الآية هى آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل هى قوله « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ »(١) ، والأول أظهر . وفى فتح البيان : اللام فى قوله « لِلَّهِ » هى التى يقال لها

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « عَلَى » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان عليّ كذا . فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا .

الثالث :

يجب الحج على المكلف في العمر مرة واحدة . بالنص والإجماع ؛ روى الإمام أحمد ومسلم[١] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وروى الإمام أحمد وأبو داود[٢] والنسائيّ وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأيها الناس ! إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفي كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

= مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ، حديث ٢٣٠٤ .

وأبو داود في : ١١ ـ كتاب المناسك ، ١ ـ باب فرض الحج ، حديث ١٧٢١ .

الرابع :

استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعا لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضاً ، فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة ، الحجُّ . على ظاهر الآية. قال : وروينا عن عكرمة أنه قال : الاستطاعة الصحة . وقال الضحاك : إذا كان شابا صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضى نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبواً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة الزاد والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلًا قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة ـ رواه الترمذىّ ـ وفى إسناده الخوزى فيه مقال . قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عزوجل : مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . فقيل : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس :

قال الإمام ابن القيّم الدمشقىّ رضى الله عنه فى (زاد المعاد) فى سياق هديه صلى الله عليه وسلم فى حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهى حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟

وروى الترمذى[١] عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : حج النبى ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر، معها عمرة . قال الترمذى : هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً ـ يعنى البخارى ـ عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى . وفى رواية : لايعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعالى : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فإنها، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء . فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة . ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع. وبعث الصديق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلى رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

« وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى، لا تعلق له بما قبله، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه، وهو أظهر وأبلغ . والكفر، على هذا، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقدم الأمر به . ونظيره فى السنة ما رواه

(١) أخرجه الترمذى فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٦ ـ باب ماجاء: كَمْ حجَّ النبىُّ ﷺ .

النسائيّ والترمذيّ[(١)] عن بريدة مرفوعاً : العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر . وعن عبد الله بن شقيق قال[(٢)] : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة ـ أخرجه الترمذيّ ـ ولأبي داود[(٣)] عن جابر مرفوعاً : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . ولفظ مسلم[(٤)] : بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وروى الترمذيّ[(٥)] عن عليّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قال الترمذيّ : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيليّ عن عمر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضى الله عنه . وروى سعيد بن منصور فى سننه عن الحسن البصريّ قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ماهم بمسلمين ، ماهم بمسلمين . قال السيوطيّ فى (الإكليل) : وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر : من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج ، كان سيماه بين عينيه كافر ، ثم تلا هذه الآية .

---

(١) أخرجه النسائيّ فى : ٥ ـ كتاب الصلاة ، ٨ ـ باب الحكم فى تارك الصلاة .
والترمذيّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٥ ـ باب الدليل على الزيادة والنقصان ، حديث ٤٦٧٨ .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٣٤ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذيّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٣ ـ باب ماجاء فى التغليظ فى ترك الحج .

تنبيه :

هـذه الآية الـكريمة حازت من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه ، فمنها الإتيان بـ(اللّام وعلى) فى قوله : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ . يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ؛ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه (من استطاع إليه سبيلًا)، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما ـ أن الإبدال تثنية للمراد وتـكرير له.

والثانى ـ أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين .

ومنها قوله « وَمَنْ كَفَرَ » مكان « من لم يحج » تغليظاً على تارك الحج . ومنها ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : عَنِ الْعَالَمِينَ ، ولم يقل: عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الـكامل ، فـكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه ـ أشار لذلك الزمخشرىّ ـ ثم عنف تعالى كفرة أهـل الـكتاب على عنادهم للحق بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أى الدالة على نبوة محمد ﷺ وقوله : « وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ » حال مفيدة لتشديد التوبيخ. وإظهارُ الجلالة فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب . وصيغةُ المبالغة فى (شَهِيدٌ) لتأكيد الوعيد ، وكل ذلك موجب لعدم الاجتراء على ما يأتونه . ثم عقب تعالى الإنـكار عليهم فى ضلالهم توبيخهم فى إضلالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام « مَنْ ءَامَنَ » مفعول (تصدون) قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به « تَبْغُونَهَا » على الحذف والإيصال ، أى تبغون لها ، أى لسبيل الله التى هى أقوم السبل « عِوَجًا » أى اعوجاجاً وزيغاً وتحريفاً . قال ابن الأنبارىّ : البغى يقتصر له على مفعول واحدإذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أى وهبت لك درهماً ، ومثله صدتك ظبياً ، أى صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حمارا

أراد : أصيد لكم .

قال الرازىّ : وفى الآية وجه آخر ، وهوأن يكون (عوجاً) فى موضع الحال . والمعنى تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدّعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين فى (الانتصاف) وجهاً آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هى المفعول به ، و(عوجاً) حال وقع فيها المصدر الذى هو (عوجاً) موقع الاسم ، وفى هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج . على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم ـ والله أعلم ـ

« وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ » بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى بحسن اعتقادكم فيهم لكونهم أهل الكتاب « يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بالتوحيد والنبوة « كَافِرِينَ » لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ..(١) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ » معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب . والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر ؟ « وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ » وهى القرآن المعجز الذى هو أجلّ من الآيات المتلوّة عليهم « وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ، وقد هداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الجهالة « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى من يتمسك بدينه الحق الذى بيّنه بآياته على لسان رسوله ، وهو الإسلام والتوحيد ، المعبر عنه بسبيل الله ، فهو على هدى لا يضل متبعه . قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه فى دفع شرور الكفار ومكايدهم ـ انتهى ـ فالجملة حينئذ

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : ... مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تذييل لقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا . . . الخ ، لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم ، فلا تخافوهم ، والتجئوا إلى الله فى دفع ذلك ، لأن من التجأ إليه كفاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » أى حق تقواه ، وذلك بدوام خشيته ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها . وقد روى الحافظ ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود أنه قال فى معنى الآية : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعاً ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

قال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف ـ والله أعلم ـ .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى العبدُ اللهَ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقال علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : أن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم. ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

أقول : كل ما روى ، مما تشمله الآية بعمومها، فلا تنافى .

تنبيه :

زعم بعضهم أن هذه الجملة من الآية منسوخة بآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .(١) متأولاً حق تقاته بأن يأتى العبد بكل ما يجب لله ويستحقه . قال : فهذا يعجز العبد عن الوفاء ، فتحصيله ممتنع . وهذا الزعم لم يصب المحزّ ، فإن كلًّا من الآيتين سيق فى معنى خاص به ،

---

(١) [٦٤/التغابن/١٦] ونصها : . . . وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فلا يتصور أن يكون فى هذه الجملة طلب مالا يستطاع من التقوى ، بل المراد منها دوام الإنابة له تعالى وخشيته وعرفان جلاله وعظمته قلباً وقالباً ، كما بينا . وهذا من المستطاع لكل منيب . وقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . أمر بعبادته قدر الاستطاعة بلا تكليف لما لا يطاق ، إذ : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا(١) . وظاهر أن من أتى بما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله ، وأخلص فى أعماله ، وكان مشفقاً فى طاعاته، فقد اتقى الله حق تقاته.

« وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مخلصون نفوسكم لله تعالى . لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا ، كما فى قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ(٢) . وهو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تموتن على حال من الأحوال ، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه ، كما ينبىء عنه الجملة الاسمية . ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها. والعامل فى الحال ماقبل (إلا) بعد النقض . وظاهر النظم الكريم ، وإن كان نهياً عن الموت المقيد بقيد ، هو الكون على أى حال غير حال الإسلام ـ لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ . وحيث كان الخطاب للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت . وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور . فإن النهى عن المقيد فى أمثاله ، نهىٌ عن القيد ورفع له من أصله بالكلية ، مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد . فإن قولك : لا تصلّ إلا وأنت

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : . . . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : . . . وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

خاشع ، يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك : لا تترك الخشوع فى الصلاة . لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط ، وذاك نهى عنه وعما يقارنه ، ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة ، وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل . وفيه نوع تحذير عما وراء الموت ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقد مضى فى سورة البقرة الكلام على لون آخر من سر البلاغة فى هذه الجملة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا» الحبل إما بمعنى العهد، كما قال تعالى فى الآية بعدها : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ[1] . أى بعهد وذمة، وإما بمعنى القرآن ، كما فى صحيح مسلم[2] عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال :

(١) [٣ / آل عمران / ١١٢] ... وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٦ (طبعتنا) ونصه :
عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سَبْرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ خلفه . لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . =

ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة ... الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أى شرعه ودينه وكتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالحبل الذى يتمسك به خشية السقوط ، وقوله « وَلَا تَفَرَّقُوا » أى لاتتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية ، متدابرين ، يعادى بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا

= حدثنا ، يا زيد ، ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا ابن أخى ، والله ! لقد كبرت سنى ، وقدُم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ . فما حدثتكم فاقبلوا . وما لا ، فلا تكلفونيه .

ثم قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، بماء يدعى خُمًّا ، بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه . ثم قال « وأهلُ بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى » .

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده . قال : ومَن هم ؟ قال : هم : آل علىّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفى الحديث رقم ٣٧ قال « ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ، هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » .

وفيه : فقلنا له : من هم أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا . وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعَصَبَتُهُ الذين حرموا الصدقة بعده .

ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليهـا مما يأباه جامعكم والمؤلف بينـكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » قال الزمخشرىّ : كانوا فى الجـاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة فى الله « وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا » أى طرف « حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » بما كنتم فيه من الجاهلية « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » أى بالإسلام. قال ابن كثير : وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله ، متواصلين فى ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ[١] ... الآية ـ وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم فى القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال[٢] : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ فكلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنّ ـ انتهى ـ

(١) [٨ / الأنفال /٦٢و٦٣] ونصهما: وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، حديث ١٩٣١ ونصه :

=

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : الضمير فى : منها . للحفرة أو للنار أو للشَّفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال(١) :

كما شرقت صدر القناة من الدم ـ انتهى ـ

= عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ ، يوم حنين ، قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس . فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضلالا فهدا كم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ . قال « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ » قال كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ .

قال « لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . أترضون أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير وتذهبون بالنبىّ ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار . ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدى أُثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٣٩ (طبعتنا) .

(١) قائله الأعشى . وصدره : وتَشرَق بالقول الذى قد أذعتَه

من قصيدة مطلعها :

ألا قل لِتَيَّا قبل مِرَّتِها اسلمى — تحيـــة مشتاق إليها متيّم

يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان ، حين جمع بينه وبين جهَنَّام ليهاجيه :

يقول قبل البيت :

لئن كنتَ فى جب ثمانين قامة — ورُقِّيت أسباب السماء بسلَّم

ليستدرجنك القـولُ حتى تهرَّه — وتعـلمَ أنى عنك لستُ بمُلْجَم

وتشرق بالقول الذى قد أذعتَه — كما شرقت صدر القناة من الدم =

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ، لأنه المحدَّث عنه ـ انتهى ـ

وفى الانتصاف : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنت إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التى يمتنّ بالإنقاذ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا ، فلمايستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهُوِىّ إلى الحفرة ، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التى يتوقع الهوىّ فيها . فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علىّ فى(التعاليق) من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه فى (الإيضاح) ـ نقله ابن يسعون ـ

وماحمل الزمخشرىَّ على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذى كانوا عليه ، ولم يكونوا فى الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها . وقد بينا فى أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة ، لأنهم كانو صائرين إليها غالباً ، لولا الإنقاذ الربانىّ . ألا ترى إلى قوله ﷺ(١) : الراتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ؟ وإلى قوله تعالى : أَمْ مَنْ أَسَّسَ

= يقول : لئن خرقت الأرض فكنت فى جب ثمانين قامة ، أو طرت فى الفضاء فرقيت أسباب السماء، ليبلغنك قولى وليتركنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام ، وتعلم أنى غير عاجز عن الانتقام وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم الرمح بالدم .

أسباب السماء : مراقيها ، وقيل طرقها ونواحيها . استدرجه : خدعه وأدناه ، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض . تهرّه : تكرهه . تشرق : تغصّ . صدر القناة : أعلاها .

من شرح الديوان للدكتور محمد حسين

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢ ـ باب الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ « الحلال بيّن والحرام بيّن =

بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ (١) . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره فى نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله «هار» . والله أعلم ـ انتهى ـ

ثم قال الزمخشرىّ : وشفا الحفرة وشفتها حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا أنها فى المذكر مقلوبة ، وفى المؤنث محذوفة . ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبة ـ انتهى.

وحكى الزجاج فى تثنية شفا « شفوان » . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمالة عرف أنه من الواو ، لأن الإمالة من الياء ـ كذا فى الصحاح .

ثم قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا فى النار ، فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار ، بالقعود على حرفها مُشْفِين على الوقوع فيها .

قال الرازىّ : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع فى الحفرة، إلا ما بين طرف الشىء وبين ذلك الشىء .

« كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك البيان « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ » فى كل مكان لإنقاذكم عن الضلال فيه « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » لرشدكم الدينىّ والدنيوىّ فيه . ثم أشار إلى أنه كما أنقذكم من النار والضلال بإرسال الرسل وإنزال الآيات ، فليكن فيكم من ينقذ إخوانه، فقال:

= وبينهما أمور مشتبهة . فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك . ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصى حمى الله . من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٩] ونصها : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » أى جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أى يقصدونها ويقتدون بها « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » وهو ما فيه صلاح دينىّ ودنيوىّ « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ » أى بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » أى عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة « وَأُولَئِكَ » الداعون الآمرون الناهون « هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح هو الظفر وإدراك البغية . فالدنيوىّ هو إدراك السعادة التى تطيب بها الحياة ، والأخروىّ أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

قيل : عطف (وَيَأْمُرُونَ) على ماقبله ، من عطف الخاص على العام ـ كذا قاله الزمخشرىّ . وناقشه فى الانتصاف . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لامحالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ[١] . وكقوله : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ[٢] . وكقوله : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى[٣] . وشبه ذلك . لأن الاقتصار على تخصيص مايفرد بالذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ... وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

يفيده تميزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعوّ إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهيّ ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقيةِ المتناولات ، فالأوْلى فى ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عامًّا ثم مفصلًا . وفى تنبيه أن الذكر على وجهين مالا يخفى من العناية ـ والله أعلم ـ إلا أن يثبت عرف بخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشرى ، وما أرى هذا العرف ثانياً ـ والله أعلم ـ انتهى .

تنبيه .

فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها ـ كذا فى فتح البيان ـ

قال الغزالىّ رضى الله عنه : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى « وَلْتَكُنْ » أمر . وظاهر الأمرِ الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حَصَرَ وقال: أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين. إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ . فإذا ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره؟ فالجواب: كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لا يؤثر ، لأنه عبث، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همّ بضرر غيره منع، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها ـ ذكره الزمخشريّ ـ .

وتفصيل هذا البحث فى (الإحياء) للغزالىّ قدس سره، وقد قال ، قدس سره ، فى طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلًا بعملها، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الدائرة ، ناهضاً بأعبائها، ومتشمرًا فى إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود والنصارى فى افتراقهم مذاهب ، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى ، وطاعة النفس، والحسد ، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، ويدعو إلى ما ابتدعه فى دينه ، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة ، المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة ، وهى كلمة الحق . فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالةً ، وإلى أعقابهم تبعاً . وفى قوله

تعالى « وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين ، والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول :

ذكر الفخر الرازىّ من وجوه قوله تعالى : اخْتَلَفُوا . أى بأن صار كل واحد منهم يدّعى أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة ـ انتهى كلامه ـ وقوله (هذاالزمان) إشارة إلى أنهذا الحال لم يكن فىعلماءالسلف ، وما زالوا يختلفون فى الفروع وفى الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، وما أداه إليه اجتهادهم ، ولم يضلل بعضهم بعضاً ، ولم يدّع أحدهم أنه على الصواب الذى لا يحتمل الخطأ، وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة المتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثانى :

قال القاشانىّ : يعنى بـ « الآيات » الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائعوغرائز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعاداتوسيراً متفاوتة، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام، تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغنم ، تكون للذئب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لابد للناس من إمام ، بر أوفاجر. ولم يرسل نبىُّ الله ﷺ رجلين فصاعداً لشأنٍ ، إلاوأمّر أحدهما على الآخر ، وأَمَرَ الآخر بطاعته

ومتابعتـه ، ليتحد الأمر ، وينتظم ، وإلا وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله ﷺ[١] : من فارق الجماعة قيـد شبر لم ير بحبوحة الجنة . وقال[٢] : الله مع الجماعة . ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة . ولما نزل قوله تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، خط رسول الله ﷺ خطًّا فقال[٣] : هـذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، حديث ٢٥٤٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن، ٧ ـ باب ماجاء فى لزوم الجماعة، ونصه: عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يجمع أمتى ، (أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم) على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذّ شذّ إلى النار » .

(٣) أخرجه الدارمىّ فى : المقدمة ، ٢٣ ـ باب فى كراهية أخذ الرأى ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطًّا ثم قال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » .

ثم تلا : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

الثالث :

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية، قدس سره، فى أول كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) : وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عنـد الأمة قبولًا عامًّا يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ فى شيء من سنته ، دقيقٍ ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من النـاس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول ﷺ . ولـكن إذا وجد لواحدمنهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له من عذر فى تركه ، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها ـ عدم اعتقاده أن النبيّ ﷺ قاله ،

الثـانى ـ عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ،

الثالث ـ اعتقاده أن ذلك الحـكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة ـ ثم أوسع المقال فى ذلك ـ .

وذكر قدس سره، فى بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون: الأدلة بعضها أقوى من بعض فى نفس الأمر . وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلًا أقوى من غيره ، ولم يرَ ما يعارضه ، عمـل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا كان فى الباطن ما هو أرجح منـه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحـكم ، لـكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطىء ، بل كل مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر ، فالمصيب واحد ، وله أجران . كما فى المجتهدين فى جهة الـكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذى أصاب الـكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ،

كان أكمل من غيره ، والمؤمن[(١)] القوىّ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجرا بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[(٢)]. قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال فى قصة يوسف : مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ[(٣)] . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجلّ العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا[(٤)] . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال، فى الأصول والفروع.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلٍّ خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولاتعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا . ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٣] .

(٣) [١٢/ يوسف /٧٦] ونصها: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٧٨و٧٩] ونصهما : . . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم قال : وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما فى مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحقَّ إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل المرحمة الذين لا يختلفون ـ انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجتهدين فى الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق، بعد وضوحه، برفضه ، وشتان مابين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافيات ، فما وجده أقوى دليلا أخذ به ، وإلا تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ[1] . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم[2] فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ـ إذا قام يصلى من الليل ـ اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم. فإن الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : ياعبادى كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدونى أهدكم ـ انتهى .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ١٧و١٨] ونصهما : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٥ (طبعتنا) وها كه بجملته :

عن أبى ذر ، عن النبىّ ﷺ ، فيما روَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادى ! إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما . فلا تظالموا . يا عبادى ! كلكم ضال =

الرابع :

ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روى من حديث (اختلاف أمتى رحمة) ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبرانىّ والبيهقىّ فى (المدخل) بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ(١) . ونحوه قوله ﷺ : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم(١) وغيره من الأحاديث الكثيرة . والذى يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف ـ انتهى ـ

= إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم . ياعبادى ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفرونى أغفر لكم . ياعبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(١) [١١ / هود / ١١٨ و ١١٩] ونصهما : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٢٢ (طبعتنا) .

عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول =

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود(١) بسندهما عن أبي عامر عبدالله بن يحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة . وأنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه. لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله ! يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبيكم ﷺ لَغَيْرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به . قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث من طرق ـ انتهى ـ

نبذة في مبدأ الاختلاف في هذه الأمة من أهل الأهواء :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب (الفرقان بين الحق والباطل) أن المسلمين كانوا في خلافة أبي بكر وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لاتنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان. ولما اقتتل المسلمون بصِفِّين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحَدَثَ في أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختفين بقولهم لايظهرونه لعليّ وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف :

= « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم . ليلني منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، بالصفحة ١٠٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .
وأبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب في شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧ .
ونصه هنا عن المسند .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار ؛

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبى السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه . قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه ؛

والثالثة : المفضِّلة الذين يفضلونه على الشيخين ، وقدتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخارىّ فى صحيحه .

ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة . ثم قال : وإن الناس فى ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج . ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضى الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالخلّال ، وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبى الفرج المقدسىّ . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع . وكالبخارىّ فى صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ثم قال قدس سره: إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث فى الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم فى الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون فى التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك. ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما فى القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم فى نفس الأمر إلى غير ذلك ؛ والآيات التى تخالفهم يشرعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها. ثم قال قدس سره : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم فى شىء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل

ينظر ماقال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره فى رسالته إلى جماعة الشيخ عدىّ بن مسافر ما نصه : وهذا التفريق الذى حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذى أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١) فمتى ترك الناس بعض ماأمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وجماع ذلك فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . إلى قوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢) . فمن الأمر بالمعروف الأمرُ بالائتلاف والاجتماع والنهى عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهى عن المنكر إقامةُ الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى . ثم قال : ويجب على أولى الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوّموا عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وقوله تعالى :

---

(١) [٥ / المائدة / ١٤] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٢ـ١٠٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » أى تبيض وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين لاتباعها الدين الحق الذى هو النور الساطع . وتسودّ وجوه كثيرة ، وهى وجوه الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، لاتباعها الضلالات المظلمة ، وليستدل بذلك على إيمانهم وكفرهم ، فيجازى كل بمقتضى حاله . وهذه الآية لها نظائر ، منها قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ(١) . ومنها قوله تعالى : وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٢) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٣) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٤). ومنها : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٥). إلى غير ذلك . وللمفسرين فى هذا البياض والنضرة والغبرة والقترة وجهان :

أحدها : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور . والسواد عن الغم . وهذا مجاز مستعمل، قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٦). ويقال : لفلان عندى يد بيضاء ، أى جلية سارة .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٠] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٦] ونصها : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

(٤) [٧٥ / القيامة / ٢٢ـ٢٥] .

(٥) [٨٣ / المطففين/ ٢٤] . (٦) [١٦ / النحل / ٥٨] .

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه الاستبشار والتهلل . وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذى بيض وجهك . ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربدّ وجهه واغبرّ لونه ، وتبدلت صورته . فعلى هذا معنى الآية : إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك ، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسودّ وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ، وهذا قول أبى مسلم الأصفهانىّ .

والوجه الثانى : أن هذا البياض والسواد يحصلان فى وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه . ولأبى مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (١) . فجعل الغبرة والقترة فى مقابلة الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً له ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ـ أفاده الرازىّ ـ

لطيفة :

(يوم) منصوب إما مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات، وترغيباً فى الاتفاق على التمسك بالدين. أى اذكروا يوم...الخ أو ظرف للاستقرار فى (لهم) أو لـ (عظيم) أو لـ (عذاب) .

« فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ، وقوله تعالى : أَكَفَرْتُمْ

(١) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . على إرادة القول ، أى فيقال لهم ذلك ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ـ أفاده أبو السعود ـ والمعنى : أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان ، وهو الدلائل التى نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، وما يناجيكم به وجدانكم من صدق هذه الدعوى وحقيتها وشهادته بصحتها ، كما قال تعالى فيما قبل هذه الآية : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (١) : فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢) . فقوله تعالى هنا : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، محمول على ما ذكر ، حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وهى عامة فى حق كل الكفار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » المراد برحمة الله الجنة ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ)

« تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » الإشارة إلى ما تقدم من الوعد والوعيد « وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ » أى لا يشاء أن يظلم عباده ، فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد فى عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . قال الرازىّ : إنما حسن ذكر الظلم ههنا

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٠] .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٥] .

لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك ، وقال : إنهم ما وقعوا فيه إلا لسبب أفعالهم المنكرة ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلّب . وقال أبو السعود : وفى سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ، كما فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » أى له تعالى وحده، من غير شركة، ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً إحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً « وَإِلَى اللَّهِ » أى إلى حكمه وقضائه « تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمورهم فيجازى كُلًّا منهم بما وعده وأوعده ، فلا داعى له إلى الظلم ؟ لأنه غنىّ عن كل شيء ، وقادر على كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير ، و « كنتم » من (كان) التامة ، والمعنى وجدتم وخلقتم خير أمة ، أو (الناقصة) والمعنى كنتم فى علم الله خير أمة ، أو فى الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة و « أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » صفة لأمة ، واللام متعلقة بـ « أخرجت » ، أى أظهرت لهم حتى تميزت وعرفت ، وفصل بينها وبين غيرها .

(١) [١٠ / يونس / ٤٤].

ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم بقوله « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فبهذه الصفات فضلوا على غيرهم ممن قال تعالى فيهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[١] . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ[٢] . قال أبو السعود : وتؤمنون بالله أى إيماناً متعلقاً بكل مايجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء . وإنما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون، وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة ، وأن ماخلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى فى شيء . قال تعالى : وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا. أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا[٢] وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة ، لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به ما بعده ـ انتهى ـ روى ابن جرير[٣] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى من الناس رِعَةً[٤] ، فقرأ هذه الآية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد

(١) [٥ / المائدة/ ٧٩] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٠و١٥١] ونصهما: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(٣) الأثر ٧٦١٢ من تفسيره (طبعة المعارف) .

(٤) رِعَةً . أصلها من الوَرَع . مثل (العدة) من الوعد . والرعة : الهدى وسوء الهيئة أو حسن الهيئة . أو هى بمعنى الشأن والأمر والأدب . وفى حديث الحسن : ازدحموا عليه فرأى منهم رعة سيئة . فقال : اللهم إليك . يريد بالرعة ههنا الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، أى لم يحسنوا ذلك .

شرط الله فيها . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، أي خياراً، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (١) ، أي بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد روى فى معنى الآية عن النبىّ ﷺ أحاديث وافرة ، منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذىّ(٢) والحاكم عن معاوية بن حيدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل . قال ابن كثير : وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذىّ . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد ونحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يُعْطَهُ نبىّ قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وساق طرقه ومخرجيه فأجاد رحمه الله تعالى . « وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى بما أنزل على محمد ﷺ « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى مما هم عليه ، إشارة إلى تسفيه أحلامهم فى وقوفهم مع ما منعهم عن الإيمان من العوض القليل الفانى والرياسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم ، والعز الباهر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ولكنهم قليل « وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة ، خفف سبحانه عن أوليائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى» أى بألسنتهم لايبالى به من طعن وتهديد «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ»

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ حدثنا عبد بن حميد.

أى يوماً من الأيام « يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ » يعنى منهزمين مخذولين « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » يعنى لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً؟ لم يقاتلوا فى موطن إلا كانوا كذلك . قال ابن كثير : فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام ـ اه .

لطائف :

قال الزمخشرى :

فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر .

فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت: جملة الشرط والجزاء. كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا. ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فما معنى التراخى فى (ثم) ؟

قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقي بدخول (ثم) دون (الواو) ، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمح في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة ـ والله أعلم ـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ » أي أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أينما وجدوا ، وقوله : إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ . في محل النصب على الحال . بتقدير : إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله ، وهو استثناء من أعمّ عام الأحوال ، والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعني ذمة الله وذمة المسلمين ، أي لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ـ كذا في الكشاف ـ « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » أي استوجبوه « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ » أي الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شيء في الذل « ذَلِكَ » أي ضربت المسكنة والذلة والغضب « بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أي استكبارًا وعتوًّا « وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ »

أي الآتين من عند الله حقاً. ولما كانوا معصومين ديناً ودنياقال « بِغَيْرِ حَقٍّ » أي يبيح القتل « ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أي ضرب الذلة والمسكنة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة ، كما هومعلل بكفرهم وقتلهم الأنبياء ، فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل : ذلك إشارة إلى علة العلة ، وهو الكفر والقتل ، أي حصلا منهم بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فإن الإقدام على المعاصي ، والاستهانة بمجاوزة الحدود يهوّن الكفر . قال الأصفهانيّ : قال أرباب المعاملات : من ابتلى بترك الآداب ، وقع في ترك السنن. ومن ابتلى بترك السنن ، وقع في ترك الفرائض . ومن ابتلى بترك الفرائض ، وقع في استحقار الشريعة . ومن ابتلى بذلك ، وقع في الكفر .

قال برهان الدين البقاعيّ رحمه الله تعالى : والآية دليل على مؤاخذة الابن الراضي بذنب الأب وإن علا . وذلك طبق ما رأيته في ترجمة التوراة التي بين أيديهم ، لأنه قال في السفر الثاني : وقال الله جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذي أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التي مما في السماء فوق وفي الأرض من تحت ومما في الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها لأني أنا الرب إلهك غيور آخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأحباري وحافظي وصاياي ـ انتهى ـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

« لَيْسُوا سَوَاءً » جملة مستأنفة سيقت تمهيداً للثناء على من أقبل على الحق من أهل الكتاب وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً ، وتذكيراً لقوله تعالى : مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ . أي ليس أهل الكتاب متساوين ومتشاركين في المساوىء . ثم استأنف قوله بياناً لعدم

استوائهم« مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ».

فى قوله تعالى « قَائِمَةٌ » وجوه :

الأول ـ أنها قائمة فى الصلاة ، وعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن فى ساعات الليل كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(١) . وقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ (٢) . وقوله : قُمِ اللَّيْلَ (٣) . وقوله : وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ(٤) .

والثانى ـ أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له ، غير مضطربه فى التمسك به ، كقوله : إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا(٥) أى ملازماً للاقتضاء ، ثابتاً على المطالبة . ومنه

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٢٠] ونصها : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٧٣ / المزمل / ٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ونصها : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى : قَآئِمًا بِالْقِسْطِ(١) .

الثالث ـ أنها مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام ، بمعنى استقام . والآناء الأوقات واحدها (إِنا) مثل (معى) و (أمعاء) و (إِنْى) مثل (نِحْى) و (أنحاء) وقوله تعالى « وَهُمْ يَسْجُدُونَ » جملة مستقلة مستأنفة ، وليست حالا من فاعل « يتلون » لما صح فى السنة من النهى عن التلاوة فى السجود ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن را كعاً أوساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم(٢). فمعنى الآية أنهم يقومون تاره ويسجدون أخرى ، يبتغون الفضل والرحمة كقوله تعالى: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(٣). وقوله : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ(٤). ويحتمل أن يكون المعنى : وهم يصلون ، والصلاة تسمى سجودا وسجدة كما تسمى ركوعا وركعة وتسبيحاً وتسبيحة . وعليه فالجملة يجوز فيها الوجهان ، وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده . ثم وصفهم تعالى بصفات أخر ، مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى على الوجه الذى نطق به الشرع . وظاهر أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله . والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] . (٤) [٣٩ / الزمر / ٧] .

المعاصى ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ، ولا يحترزون عن معاصى الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » تعريض بمداهنة اليهود فى الاحتساب ، بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ، فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وقوله تعالى « وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير . والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه . وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها ، بل بمبادرتهم إلى الشرور « وَأُولَٰئِكَ » أى المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة « مِنَ الصَّالِحِينَ » أى من عداد من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه . والوصف بالصلاح دالّ على أكمل الدرجات . فهو غاية المدح ، ولذا وصفت به الأنبياء فى التنزيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ » أى لن يعدموا ثوابه . وإيثار صيغة المجهول للجرى على سنن الكبرياء . وقرئ الفعلان بالخطاب « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » فيوفيهم أجورهم . وهؤلاء الموصوفون هم المذكورون فى آخر السورة : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية[1] .

تنبيه :

قال البقاعىّ : أرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات . وقال الرازىّ : لما قال تعالى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . كان تمام الكلام أن يقال : وَمِنْهُمْ

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ . إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر . وتحقيقه : أن الضدين يُعلمان معاً . فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر ، قال أبوذؤيب[1] :

دعاني إليها القلب . إني لأمره   مطيع . فما أدرى أرشْدٌ طِلَابُها

أراد أم غيّ ، فاكتفى بذكر الرشد عن الغيّ ، وهذا قول الفراء وابن الأنباريّ . وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأن ذكرها قد جرى قبل ، ولأنا قد ذكرنا أن العلم بالضدين معاً ، فذكرُ أحدهما مغن عن ذكر الآخر . كما يقال زيد وعمرو لا يستويان، زيد عاقل ديّن ذكى ، فيغنى هذا عن أن يقال : وعمرو ليس كذلك . فكذا ههنا . لما تقدم قوله: ليسوا سواء. أغنى عن ذلك الإضمار ـ انتهى ملخصا ـ أقول : لا مانع من كون الآية الآتية هي الشق الثاني المقابل للأول . فإن عنوان الذين كفروا مقابل بمفهومه لما قبله كما لا يخفى ـ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ » أي لن تدفع عنهم « أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

---

(١) من قصيدته التي أولها :

أبا الصُّرم من أسماء حدثك الذي   جرى بيننا يوم استقلت ركابُها

في الديوان (عصاني إليها) وفسرها بقوله : أي خطر إليها قلبي وذهب إليها ، فما أدرى أرشد الذي وقعتُ فيه أم غيّ .

وعبارة الأصمعيّ : جعل لا يقبل مني . أي ذهب إليها قلبي سفها . وهي أوضح في معنى العصيان من عبارة الشارح هنا .

مِنَ اللهِ شَيْئاً » أى من عذاب الله ، وإن كان التصدق بالأموال يطفىء غضب الرب فى حق المؤمنين ، ويغفر لهم بموت أولادهم ، أو استغفارهم « وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ولما بين تعالى أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوها فى وجوه الخيرات ، فيخطر فى البال أنهم ينتفعون بها ، فأزال تلك الشبهة ، وضرب لها مثلا يذهابها هباءً منثوراً بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » من المكارم ويواسون فيه من المغارم « كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ » أى برد شديد كالصرصر « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » بالكفر والمعاصى فباؤوا بغضب من الله « فَأَهْلَكَتْهُ » فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه . فصار الظلم ريحاً لحصوله من هوى النفس ذات برودة شديدة لكونه ظلم الكفر الذى هو الموت المعنوىّ فأهلكته ـ قاله المهايمىّ ـ « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ » بإهلاك حرثهم بإرسال ريح من عنده « وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بإرسال ريح الظلم الكفرىّ على حرثهم الأخروىّ .

لطائف :

إن قيل : الغرض تشبيه (ما أنفقوا) فى ضياعه، بالحرث الذى ضربته الصر ، وقد جعل ما ينفقون ممثلا بالريح ، فما وجه المطابقة للغرض ؟ أجيب : بأن هذا من التشبيه المركب وهو ماحصلت فيه المشابهة بين ماهو المقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزائهما، والمقصود تشبيه الحال بالحال ؛ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مُهْلِكِ ريح فتحصل المشابهة .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : والأقرب أن يقال أصل الكلام ـ والله أعلم ـ مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة . وهو تقديم ما هو أهم . لأن الريح التى هى مثل العذاب ، ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عناية بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هـذا ، فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة ، قوله تعالى : فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . .(1) الآية . ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه ، والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت . وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق .

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » أى أصحاباً يستبطنون أمركم من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . قال الزمخشرىّ : بطانة الرجل ووليجته خصيصه وصفيّه الذى يفضى إليه بشُقُوره ثقةً به. شبّه ببطانة الثوب . كما يقال : فلان شعارى ـ انتهى ـ ومن أمثال العرب فى سرار الرجل إلى أخيه ما يستره عن غيره : أفضيت إليه بشقورى ـ بضم الشين وقد تفتح ـ أى أخبرته بأمرى ، وأطلعته على ما أسره من غيره . وفى القاموس وشرحه : البطانة الصاحب للسر الذى يشاور فى الأحوال ، والوليجة وهو الذى يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وقال الزجاج : البطانة الدخلاء الذين ينبسط إليهم ويستبطنون ، يقال : فلان بطانة لفلان أى مداخل له موانس . وهؤلاء المنهى عنهم ، إما أهل الكتاب ، كما رواه ابن جرير وابن إسحق عن ابن عباس : أنهم اليهود . وذلك لأن السياق فى السورة، والسباق معهم . وقد كان بين الأنصار وبين مجاوريهم من اليهود ما هو معروف من سابق الرضاع والحلف. وإما المنافقون لقوله بعد : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا[١] ...الخ. وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى فى سورة البقرة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ[٢] ... الخ ـ وربما كان يغتر بعض المؤمنين بظاهر أقوال المنافقين

(١) [٣ / آل عمران / ١١٩] ونصها : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

ويظنون أنهم صادقون فيفشون إليهم الأسرار . وإما جميع أصناف الكفار وقوفاً مع عموم قوله تعالى « مِنْ دُونِكُمْ » كما قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ(١) . ومما يؤكد ذلك مارواه ابن أبي حاتم أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة نصرانياً ، حافظ كاتب . فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين .

قال الرازيّ : فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي من اتخاذ النصرانيّ بطانة .

وقال الحافظ ابن كثير : ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

وقال السيوطيّ في (الإكليل) : قال الكيا الهراسيّ : في الآية دلالة على أنه لايجوز الاستعانة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين ـ انتهى ـ

ووجه ذلك ، كما قال القاشانيّ ، أن بطانة الرجل صفيه وخليصه الذي يبطنه ويطلع على أسراره ، ولا يمكن وجود مثل هذا الصديق إلا إذا اتحدا في المقصد واتفقا في الدين والصفة ، متحابين في الله لا لغرض . كما قيل في الأصدقاء : نفس واحدة في أبدان متفرقة . فإذا كان من غير أهل الإيمان ، فبأن يكون كاشحاً أحرى . ثم بيّن نفاقهم واستبطانهم العداوة

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

بقوله : « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا » أى لا يقصرون بكم فى الفساد . قال القاشانىّ : لأن المحبة الحقيقية الخالصة لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة . فلا تكون فى غيرهم لكونهم فى عالم التضادّ . بل ربما تتألفهم الجنسية العامة الإنسانية لاشتراكهم فى النوع والمنافع والملاذ واحتياجهم إلى التعاون فيها . والمنافعُ الدنيوية واللذات النفسانية سريعة الانقضاء فلا تدوم المحبة عليها . بخلاف المحبة الأولى فإنها مستندة إلى أمر لا تغير فيه أصلاً .

قال الزمخشرىّ : يقال : ألَا فى الأمر ، يألو : إذا قصر فيه . ثم استعمل معدّى إلى مفعولين . فى قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً ، على التضمين . والمعنى : لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه . والخبال الفساد « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » أى عَنَتَكُمْ ، على أن (ما) مصدرية ، والعنت شدة الضرر والمشقة ، أى تمنَّوْا ما يهلككم « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى ظهر البغض الباطن حتى خرج من أفواههم لأنهم لا يتمالكون ، مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها ، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين . وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان « وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » مما ظهر . لأن ظهوره ليس عن روية واختيار بل فلتة . ومِثْلُه يكون قليلا « قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ » الدالة على سوء اتخاذكم إياهم بطانة لتمتنعوا منها فتخلصوا فى الدين وتوالوا المؤمنين وتعادوا الكافرين « إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى من أهل العقل . أو تعقلون ما بيّن لكم فعملتم به . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل ؟ قلت : يجوز أن يكون (لا يألونكم) صفة للبطانة . وكذلك (قد بدت البغضاء) . كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالا ، بادية بغضاؤهم . وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ . وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة . ثم بيّن تعالى خطأهم فى موالاتهم حيث يبذلونها لأهل البغضاء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ » أى تخالطونهم وتفشون إليهم أسراركم ولا يفعلون مثل ذلك بكم. وقوله « وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » الواو للحال وهى منتصبة من ضمير المفعول فى (لا يحبونكم) والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فلا تنكرون منه شيئاً، فليس فيكم مايوجب بغضهم لكم. فما بالكم تحبونهم وهم يكفرون بكتابكم كله ؟

ولم تجعل الواو للعطف على (ولا يحبونكم) أو (تحبونهم) كما ارتضاه أبو حيان لأنه فى معرض التخطئة . ولا كذلك الإيمان بالكتاب فإنه محض الصواب . وإن اعتذر له بأن المعنى : يجمعون بين محبة الكفار والإيمان وهما لا يجتمعان ، لبعده . والحالية مقررة للخطأ فتأمل ، نقله الخفاجىّ .

قال الزمخشرىّ : فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم . ونحوه : فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ(١) . « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا » نفاقاً وتغريراً « وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » أى من أجله ، تأسفاً وتحسراً . حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا . وعضُّ الأنامل عادةُ النادم العاجز والمغتاظ إذا عظم حزنه على فوات مطلوبه . ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن

(١) [٤/ النساء/ ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَالَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

الغضب . حتى يقال فى الغضبان : إنه يعض يده غيظاً ، وإن لم يكن هناك عض « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ » دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد بزيادة الغيظ زيادة مايغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله . وما لهم فى ذلك من الذل والخزى والتبار . كذا فى الكشاف « إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » فيعلم ما فى صدورهم من البغضاء والحنق . وهو يحتمل أن يكون من (المقول) أى وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً . وأن يكون خارجاً عنه بمعنى: قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطْلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم . وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ بطيب النفس ، وقوة الرجاء ، والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ ثم بين تعالى تناهى عداوتهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ » بظهوركم على العدوّ ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم، وتتابع الناس فى دينكم « تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ » بإصابة العدوّ منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جدب أو بلية « يَفْرَحُوا بِهَا » ولا يعلمون ما لله تعالى فى ذلك من الحكمة .

لطيفة :

المس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مسًّا . والتعبير به فى جانب الحسنة ، وبالإصابة فى جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما فى غير هذا الموضع كقوله : إِنْ تُصِبْكَ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ[١] . وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ[٢] . وقال : إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا[٣] .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكأن الكلام ـ والله أعلم ـ إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها . وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحدالذى يرثى الشامت عنده منها ، فهم لا يرثون لكم ولا ينفكّون عن حسدهم ، ولا فى هذه الحال . بل يفرحون ويسرون . والله أعلم ـ انتهى ـ

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم فى السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى . وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثى له الشامت فهم لا يرجى موالاتهم أصلاً . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعىّ : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا » أى تصبروا على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب وتثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم فى أموركم والالتجاء إلى ولايتهم « لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستعين به لا بغيره : ظافر فى طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءة ربه . والمستعين بغيره : مخذول موكول إلى نفسه ، محروم عن نصرة ربه . أفاده القاشانىّ .

(١) [٩ / التوبة / ٥٠] ونصها : إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا .

(٣) [٧٠ / المعارج / ٢٠و٢١] .

وقيل : المراد بنفي الضرر عدم المبالاة به ، لأن المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . و (الكيد) الاحتيال على إيقاع الغير في مكروه « إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » قرىء بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم من الكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أي بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازيّ : إطلاق لفظ (المحيط) على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذي يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جَازَ في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (١) . ـ انتهى ـ

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف المتكلم بالخطاب ، لا من الوضع المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التي جاءت في القرآن موضوعة لمعاني ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعاني . وتتمة هذا البحث تقدمت في تفسير (الرحمن الرحيم) من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

« وَإِذْ غَدَوْتَ » أي خرجت « مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أي تنزل « الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ » أي أماكن ومراكز يقفون فيها « لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ذهب الجمهور وعلماء المغازي إلى أن هذه الآيه نزلت في وقعة أُحُد ، والسر في سوق هذه الوقعة الأُحُدِيَّة وإيلائها البدرية،

(١) [٨٥ / البروج / ٢٠] .

هو تقرير ما سبق . فإن المدعى فيما قبلها المساءة بالحسنة والمسرة بالمصيبة وسنة الله تعالى فيهم فى باب النصر والمعونة ودفع مضار العدوّ ، إذا هم صبروا واتقوا ، والتغيير إذا غيروا . أى اذكر لهم ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين لم يصبروا فى أُحُد ، فأصيبوا وسرَّت الأعداء مصيبتكُم ، وحين صبروا واتبعوا فنُصِروا وساء العدوَّ نصرُهم . وفى توجيه الخطاب إليه ﷺ تهييج لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل ، من غير أدنى وقوف مع المألوف ـ كذا يستفاد من تفسير البقاعىّ ـ .

وهذه الآية هى افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير فى هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى هذه الوقعة ، كما سيذكر ، وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاءوا إلى أطراف المدينة فى غزوة السَّوِيق ، ولم ينل ما فى نفسه ، أخذ يؤلّب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش . وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أُحُد ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أُبىّ ، وكان هو الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لَأْمَتَهُ ، وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك الملحّين، وقالوا : أكْرَهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج . فقالوا : يارسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنبىّ ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وهو بالمدينة : رأى أن في سيفه ثلمة ، ورأى أن بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة. فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . فخرج يوم الجمعة ! فلما صار بالشَّوْط ، بين المدينة وأُحُد ، انخزل عنه عبد الله بن أُبيّ في ثلث الناس ، مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام . فتبعهم عبد الله بن عمرو ، والد جابر، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبّهم ، وسأل النبيَّ صلى الله علية وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، وسلك حَرَّة بني حارثة ، ومر بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بني حارثة يدل به ، حتى نزل الشعب من أُحُد مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبّى للقتال وهو في سبعمائة. فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير . وأَمَرَه وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وأن لايفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر. وكانوا خلف الجيش . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم . وظاهَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يومئذ ، وأعطى اللواءَ مصعبَ بن عمير ، وجعل على إحدى المجنّبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فردّ من استصغره عن القتال . منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد ابن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزام . وأجاز من رآه مطيقاً . منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة . فقيل: أجاز من أجازه ، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، وردّ من رد لصغره عن سنّ البلوغ ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك . قالوا : وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآني مطيقاً أجازني .

وتعبّت قريش للقتال ، وهم فى ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة سماك بن خرشة ، وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب ، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد بن عمرو بن صيفىّ ، وكان يسمى (الراهب) لترهبه وتنسكه فى الجاهلية ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاسق). وكان رأس الأوس فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلّبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقى من المسلمين. فنادى قومه وتعرف إليهم. قالوا : لاأنعم الله لك عيناً يا فاسق ! فقاتل المسلمين قتالا شديدا، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاءً شديدا ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم . فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا فى طلب الغنيمه ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرَهم منهم إلا نحوُ العشرة ، فكرّ المشركون وقتلوا من بقى من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدوّ إلى رسول الله ﷺ . وقاتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل ، وجرح رسول الله ﷺ فى وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة فى رأسه ، يقال: إن الذى تولى ذلك عتبة بن أبى وقاص وعمرو بن قميئة الليثىّ. وشد حنظلةُ الغسيلُ على أبى سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأسود الليثىّ ، من شعوب ، فقتله . وكان جنباً . فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته .

وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هناك ، فأخذ عليّ بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدمَ من جرحه مالكُ بن سنان الخدريّ ، والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح. فندرت ثنيتاه فصار أهتم . ولحق المشركون برسول الله ﷺ . وكرّ دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون . وأبو دجانة يلي النبيّ ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان . فرجع وهي على وجنته . فردها عليه السلام بيده فصحّت . وكانت أحسن عينيه . وانتهى النضر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا ، وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة . وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج منها . وقتل حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم . ووهن المسلمون لصريخ الشيطان . ثم إن كعب بن مالك الشاعر، من بني سلمة ، عَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنادى بأعلى صوته يبشر الناس. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: أنصت . فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، وأدركه أبيّ بن خلف في الشعب، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة وطعنه بها في عنقه . فكرّ أُبيّ منهزماً . وقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله ! لو بصق عليّ لقتلني ، وكان ﷺ قد توعده بالقتل . فمات عدوّ الله بسَرِف ، مرجعهم إلى مكة . ثم جاء عليّ رسولَ الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض . فاستوى على صخرة من الجبل. وحانت الصلاة فصلى بهم قعودًا. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين. ونزل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (١) .. الآية

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٥] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واستشهد نحو من سبعين . معظمهم من الأنصار . وقتل من المشركين اثنان وعشرون . ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة . ويقال إنه قال لعليّ: لايصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

هذا ملخص هذه القصة . وقد ساقها بأطول من هذا أهل السير . وفيما ذكر كفاية . وأما ما اشتملت عليه من الأحكام والفقه والحكم والغايات المحمودة ، فقد تكفل بيانها الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فارجع إليه .

تنبيه :

فسر أكثر العلماء (غدوت) بأصلها ، وهو الخروج غدوة أى بكرة . ثم استشكلوا أنه ﷺ خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير ، فكيف المطابقة ؟

فمنهم من أجاب بأن المراد غدوة السبت ، وأنه كان فى صباحه التبوؤ للمقاعد إلا أنه لا يساعده (من أهلك) لأنه لم يكن وقتئذ أهله معه .

ومنهم من قال : المراد غدوة الجمعة أى : اذكر إذ غدوت من أهلك صبيحة الجمعة إلى أصحابك فى مسجدك تستشيرهم فى أمر المشركين ، ثم قال : وبنى من (غدوت) حالًا إعلاماً بأن الشروع فى السبب شروع فى مسببه ، فقال (تبوئ المؤمنين) أى صبيحة يوم السبت .

وكان يخطر لى أن الأقرب جعل الغدوّ بمعنى الخروج غير مقيد بالبكرة ، وكثيراً مايستعمل كذلك .

ثم رأيت فى فتح البيان ما استظهرته فحمدت الله على الموافقة ونصه : وعبر عن الخروج بالغدوّ الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة ، لأنه قد يعبر بالغدوة والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما ، كما يقال (أضحى) وإن لم يكن فى وقت الضحى ـ انتهى ـ

قال البقاعيّ : ولما كان رجوع عبد الله بن أبيّ المنافق ، كما يأتي في صريح الذكر آخر القصة ، من الأدلة على أن المنافقين ، فضلًا عن المصارحين بالمصارمة ، متصفون بإخبار الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء ، مع أنه كان سبباً في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل ـ كان إيلاء هـذه القصة للنهي عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فسادٍ ، في غاية المناسبة . ولذلك افتتحها سبحانه بقوله مبدلًا من (إذ غدوت) دليـلًا على ما قبله من أن بطانة السوء لا يألونهم خبالًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ » أي بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس « أَنْ تَفْشَلَا » أي تكسلا وتجبنا وتضعفا لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فعصمهما الله ، فمضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا » ناصرهما ، ومتولى أمرهما ، فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، « وَعَلَى اللَّهِ » وحده دون ما عـداه استقلالًا أو اشتراكاً « فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » في جميع أمورهم ، فإنه حسبهم . و(التوكل : تفعل) من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد في كفايتـه عليه ، ولم يتوله بنفسه . وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . روى الشيخان[1] عن جابر رضي الله عنـه قال : فينا نزلت . إذ همت

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .

ومسلم في : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ (طبعتنا) .

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ـ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنوسلمة ، وماتحب أنهالم تنزل لقوله تعالى: والله وليهما . أى لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وإن تلك الهَمَّة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لما ذكر تعالى قصة أُحُد أتبعها بذكر قصة بدر . وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا فى غاية الضعف عَدداً وعُدداً ، والكفار كانوا فى غاية الشدة والقوة . ثم إنه تعالى نصر المسلمين على الكافرين ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى والصبر والتقوى هو النصر والمعونة والتأييد . و (بدر) موضع بين الحرمين ، إلى المدينة أقرب ، يقال هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً . أو اسم بئر هناك حفرها رجل اسمه بدر ، وقوله « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقوا كم من نصرته . وقد أشير فى مواضع من التنزيل إلى غزوة بدر ، وكانت فى شهر رمضان ، السنة الثانية من الهجرة ، وكان سببها أن النبيّ ﷺ بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة . معها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاصى ، ومخرمة بن نوفل . فندب ﷺ إلى هذه العير . وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج . ولم يحتفل فى الحشد . لأنه لم يظن قتالا . وخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، لم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها . واتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفاريّ ، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لعيرهم . فنفروا وأوعبوا ، وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ودفع إلى

علىّ راية ، وإلى رجل من الأنصار راية أخرى، يقال كانتا سوداوين . وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة . وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ ، فسلكوا نقب المدينة إلى ذى الحليفة، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء، وبعث ﷺ قبلها بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبى سفيان وغيره ، ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادى دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، وفهموا ذلك ، فتكلم سعد بن معاذ ، وكان فيما قال : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسرْ بنا يا رسول الله على بركة الله . فسرّ بذلك وقال: سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً فى نفر يلتمسون الخبر . فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما ، وهو ﷺ قائم يصلى ، وقالوا : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية فى الخبر ، ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤنة ، فجعلوا يضربونهما فيقولان : نحن من العير . فسلّم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ، وقال للغلامين : أخبرانى أين قريش ؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً ، فقال ﷺ : القوم ما بين التسعمئة والألف. وقد كان بَسْبَس وعدىّ مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا فى شن لهما ، ومجدى بن عمرو من جهينة بقربهما. فسمع عدىّ جارية من جوارى الحى تقول لصاحبتها : العير تأتى غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم وأقضيك الذى لك ، وجاءت إلى مجدى بن عمرو ، فصدقها . فرجع بسبس وعدىّ بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر. فقال لمجدى: هل أحسست أحداً؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل، فاستقيا الماء ونهضا . فأتى أبو سفيان مناخهما، وفتت من أبعار رواحلهما . فقال : هذه ، والله ، علائف يثرب . فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا . وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً ،

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بني زهرة ، وكان حليفهم ومطاعاً فيهم وقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت ، فارجعوا . وكان بنو عديّ لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدراً من قريش عدويّ ولا زهريّ . وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وَبْلُهُ مما يليهم ، وأصاب مما يلي المسلمين دهس الوادي ، وأعانهم على السير . فنزل صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فقال له الحباب بن المنذر : آلله أنزلك بهذا المنزل فلا نتحول عنه ، أم قصدت الحرب والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو الرأي والحرب . فقال : يا رسول الله ! ليس هذا بمنزل ، وإنما نأتي أدنى ماء من القوم ، فننزله ونبني عليه حوضاً ، ونملؤه ونُعَوِّر القُلُبَ كلها ، فنكون قد منعناهم الماء ، فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه النصر من ربه ، ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً . ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحيّ يحزر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزرهم وانصرف وخبرهم الخبر . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا يكون الحرب ، فأبى أبوجهل ، وساعده المشركون ، وتواقفت الفئتان ، وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ، ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح ، وأبوبكر يقاوله . ويقول في دعائه : اللهم ! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، اللهم ! أنجز لي ما وعدتني . وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انتبه ، فقال : أبشر يا أبا بكر ! فقد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس . ورمى في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شاهت الوجوه . ثم تزاحفوا . فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز ، فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب ، فقتل حمزةُ وعليٌّ شيبةَ والوليدَ ، وضرب عتبةُ عبيدةَ ، فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعليّ إلى عتبة فقتلاه ،

وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم. وجال القوم جولة . فهزم المشركون . وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا . وأسر سبعون . واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا . ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة ، وقسم الغنائم في الصفراء ، ودخل المدينة لثمان بقين من رمضان . وبسطُ القصة في السير . ومن أبدعها سياقاً وفقهاً (زاد المعاد) فليرجع إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ » لتقويتكم ونصركم ودفع أعدائكم « بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » من سمائه لقتال أعدائه. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

« بَلَىٰ » إما من تتمة مقوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أو ابتداء خطاب من الله تعالى تأييداً لقول نبيه وزيادة على ما وعدهم تكرماً وفضلًا . أى : نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ولكنه يزيدكم « إِنْ تَصْبِرُوا » على قتالهم « وَتَتَّقُوا » الفرار عنهم « وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا » أى ساعتهم هذه فلا تنزعجوا بمفاجأتهم « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » فى حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم « مُسَوِّمِينَ » بكسر الواو أى معلمين أنفسهم بأداة الحرب على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها . وقرئ

بفتح الواو أى معلَّمين من قبله تعالى . روى البخارى[١] عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

تنبيه :

فى وعده صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالإمداد بقوله « إِذْ تَقُولُ » وجهان :

الأول ـ أنه كان فى يوم بدر، فإن سياق ماقبله يدل عليه وهو قوله « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ » فـ (إذ) ظرف لـ (نصركم) ، أى نصركم وقت قولك للمؤمنين وقد أظهروا العجز واستغاثوا ربهم . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، على هذا الوجه ، وبين قوله فى سورة الأنفال فى قصة بدر : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[٢] ؟

فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لاينافى الثلاثة آلاف فما فوقها، لقوله(مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وذلك أنهم لما استغاثوا أمدهم بألف ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا ، وكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لتقويتهم، وأسرها من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحى ، ونزوله مرة بعد مرة . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، ومما يؤيد هـذا الوجه أن سياق بدر فى الأنفال من قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . .[٣] الآيات شبيه بهذا السياق هنا . كما يذوقه من تدبره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدرًا ، حديث ١٨٥٥ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٩] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ =

الوجه الثانى :

أن هذا الوعد كان يوم أُحُد ، فإن القصة فى سياق أُحُد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً فى أثنائها ؛ ليذكرهم بنعمته عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، وإنه كذلك هو قادر على نصرهم فى سائر المواطن . ثم عاد إلى قصة أُحُد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ... الآية . ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والامداد الذى ببدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف . وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذاك مطلق ، والقصة فى هذه السورة هى قصة أُحُد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً . والقصة فى الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق هنا غير السياق فى الأنفال ـ أشار لذلك ابن القيّم فى (زاد المعاد) .

وقد انتصر للوجه الأول العلامة أبو السعود ، وبين ضعف الثانى بأوجه وجيهة . فليرجع إليه .

ونقل الخازن عن ابن جرير أنه قال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله .

ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك . ولا خبر عندنا صحّ من الوجه الذى يثبت أنهم أُمِدُّوا بالثلاثة الآلاف . ولا بالخمسة الآلاف .

= وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

وغير جائز ، أن يقال فى ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم به الحجة . ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أن فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . [٨ / الأنفال / ٩].

فأما فى يوم أُحد فالدلالة على أنهم لم يُمَدُّوا أبْيَنُ منها فى أنهم أمدوا . وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يُهزموا ، وينالَ منهم ما نيل منهم .

فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره .

(هذا هو نص ابن جرير . صفحة ١٨٠ و ١٨١ من الجزء السابع (طبعة المعارف) .

فإن قلت: فما تصنع بحديث سعد بن أبى وقاص المروىّ فى الصحيحين أنه قال(١): رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل ؟ قلت : إنما كان ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد ـ انتهى .

فائدة :

الإمـداد ، لغةً الإعانة . والمراد هنا إعانة الجيش . وهل إعانة الملائكة للجيش بالقتال معهم للحديث السابق . ولحديث عائشة فى الصحيحين(٢) قالت : لما رجع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، حديث ١٨٧٣ .

ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ٤٦و٤٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم ، حديث ٣٠٨ .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : قد وضعتَ السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ! قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا ـ وأشار إلى بنى قريظة ، فخرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم ـ أو هى بتكثير سواد المسلمين وتثبيت قلوبهم ، كما قال تعالى فى الأنفال(١) : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ. أوْ بهما معاً . وهو الظاهر . وقد سئل السبكىّ عن الحكمة فى قتال الملائكة ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبىّ وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التى أجراها الله تعالى فى عباده. والله فاعل الجميع ـ انتهى ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ » أى ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوةقلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم «وَلِتَطْمَئِنَّ» أى تسكن « قُلُوبُكُمْ بِهِ » أى فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وحده لا من الملائكة ولا من غيرهم ، فالأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير ، وفيه توثيق للمؤمنين، وعدم إقناط من النصر عند فقدان أسبابه وأماراته « الْعَزِيزِ » أى الذى لا يغالب فى حكمه « الْحَكِيمِ » الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته الباهرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

« لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ليهلك وينقص طائفة منهم بالقتل والأسر ،

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ... فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

كما كان يوم بدر، مِنْ قتل سبعين وأسر سبعين منهم ، واللام متعلقة ، إما بقوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ . وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان لكيفية وقوعه ـ وإما بما تعلق به الخبر فى قوله تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ . من الثبوت والاستقرار « أَوْ يَكْبِتَهُمْ » أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين « فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » أى فيرجعوا منقطعى الآمال . وإنما أوقع بين المعطوف والمعطوف عليه فى أثناء الكلام قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى لنفسه تأثيراً فى بعض هذه الأمور فيحتجب عن التوحيد ، أى ليس لك من أمرهم شىء ، كيفما كان ، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار . إن عليك إلا البلاغ ، إنما أمرهم إلى الله ـ أفاده القاشانىّ ـ وفى الاعتراض تخفيف من حزنه لكفرهم ، وحرصه على هداهم ، كما قال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ . وقوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى مماهم فيه من الكفر فيهديهم للإسلام بعد الضلالة « أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم « فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » أى يستحقون ذلك لاستمرارهم على العناد .

روى البخارىّ[(١)] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال سمع الله لمن حمده: اللهم ! ربنا ولك الحمد : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسنى يوسف ، يجهر بذلك ،

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ٤٨٣ .

وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً (لأحياء من العرب) حتى أنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية .

وقد أسند ما علقه عن ابن عمر[1] أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر ،يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً . بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ربناولك الحمد . فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية ـ ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً ولفظه : اللهم ! العن فلانا وفلانا . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهيل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت هذه الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فيتب عليهم كلهم .

وقال الإمام أحمد[2] حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ، فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . الآية ـ انفرد به مسلم . ورواه البخاريّ تعليقاً . وقد تقدم لنا في مقدمة التفسير تحقيق معنى سبب النزول ، وأن الآية قد تذكر استشهاداً في مقام ، لكونها مما تشمله . فيطلق الراوي عليها النزول فيه ، ولا يكون قصده أن هذا كان سبباً لنزولها . والحكمة في منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً . والإلحاح في الدعاء مظنة الإجابة ، لا سيما من أشرف خلقه . فاقتضت حكمته تعالى إمهالهم إلى أن يتوبوا لسابقِ علمه فيهم . وفيه طلب التفويض في الأمور الملمة ، لما في طيّها من الأسرار الإلهية .

---

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ١٨٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

لطيفة :

قوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . منصوب بإضمار (أن) فى حكم اسم معطوف بـ (أَو) على (الأمر) أو على (شىء) ، أى ليس لك من أمرهم شىء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم ، أو ليس لك من أمرهم شىء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم .

أقول: جَعْلُ « أَوْ يَتُوبَ » منصوباً بالعطف على (يكبتهم) ـ بعيد جداً . وإن قدمه بعض المفسرين على الوجه المتقدم . وذلك لأن قوله تعالى « لَيْسَ لَكَ » كلام مستأنف على ماصرحت به الروايات فى سبب النزول . وهى المرجع فى التأويل ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » تقرير لما قبله من قوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ، أى له مافيهما ملكاً وأمراً « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » فيحكم فى خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مقرر لمضمون قوله : يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، مع زيادة . وفى تخصيص التذييل به دون قرينة ، من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه فى الجاهلية من تضعيفه ، كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّيْنُ محله يقول : إما أن تقضى حق أو تربى وأزيد فى الأجل . وفى ندائهم باسم (الإيمان) إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا . وقد تقدم فى البقرة من المبالغة فى النهى عنه ما يروع من له أدنى تقوى . ويوجب، لمن لم يتركه ومايقاربه، الضمان بالخذلان فى كل زمان : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ[١] . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[٢] . وقوله « أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » أى زيادات متكررة ، وليس لتقييد النهى به ، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ، بل لمراعاة عادتهم كما بيّنا . ومحله النصب على الحالية من الربا . وقرئ (مضعفة) « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما تنهون عنه « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » بإيفاء حقوقكم وصونكم عن أعدائكم ، كما صنتم حقوق الأشياء . ومما يعلم به حكمة نظم هـذه الآية فى سلك قصة أحد ، ما رواه أبو داود[٣] عن أبى هريرة أن عمرو بن أُقَيْشٍ رضى الله عنه كان له ربًا فى الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أُحُد ، فقال : أين بنو عمى ؟ قالوا بأحد . قال : أين فلان ؟ قالوا : بأُحُد . قال : فأين فلان ؟ قالوا :

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٩] . . . وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٦] .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٣٧ ـ باب فيمن يسلم ويقتل مكانه فى سبيل الله عز وجل ، حديث ٢٥٣٧ .

بأُحُد . فلبس لَأْمَتَهُ ، وركب فرسه ، ثم توجه قِبَلَهُم ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقال لأخته : سليه : حمية لقومك وغضباً لهم أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله ﷺ ، فمات ، فدخل الجنة ، وما صلى لله عز وجل صلاة .

قال الدينوري : وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ! فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل .

وعند ابن إسحق : فذكر لرسول الله ﷺ فقال : إنه لمن أهل الجنة ـ هذا ملخص ما أورده البقاعي رحمه الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » بالتحرز عن متابعتهم في الربا ونحوه . روى عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » أي في ترك الربا ونحوه « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ » أي إلى ما يؤدي إليهما من الاستغفار

والتوبة والأعمال الصالحة . وقوله « عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » أى كعرضهما ، كما قال فى سورة الحديد : سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (١) . وفى العرض وجهان :

الأول ـ أنه على حقيقته . وتخصيصه بالذكر تنبيهاً على اتساع طولها . فإن العرض فى العادة أدنى من الطول ، كما قال تعالى فى صفة فرش الجنة : بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (٢) . أى فما ظنك بظاهرها ؟ فكذا هنا .

والثانى ـ أنه مجاز عن السعة والبسطة . قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة ، كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال : هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة . وقال الزمخشرى : المراد وصفها بالسعة والبسطة . فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه تعالى وأبسطه ـ والله أعلم ـ « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ » أى فى حال الرخاء واليسر « وَالضَّرَّاءِ » أى فى حال الضيقة والعسر . وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس ، فمخالفتها فيه منقبة

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢١] . . . أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٥٤] ونصها : مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

شامخة « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » أى الممسكين عليه فى نفوسهم ، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، اتقاء التعدى فيه إلى ما وراء حقه .

روى الإمام أحمد[1] عن جارية بن قدامة السعدىّ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولًا ينفعنى وأقلل علىّ لعلّى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه . حتى أعاد عليه مرارا . كل ذلك يقول : لا تغضب ـ انفرد به أحمد ـ وروى من طريق آخر أن رجلًا قال : يارسول الله أوصنى ، قال : لاتغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » أى ظلمهم لهم ، ولو كانوا قد قتلوا منهم ، فلا يؤاخذون أحداً بما يجنى عليهم ، ولا يبقى فى أنفسهم موجدة ، كما قال تعالى : وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[2] . قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ماذم من فعل المشركين فى أكل الربا، فنهى المؤمنون عن ذلك، وندبوا إلى العفو عن المعسرين . قال تعالى عقيب قصة الربا والتداين: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ،وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ،إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[3] .ويحتمل أن يكون كما قال تعالى فى الدية: فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ[4] . إلى قوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . ويحتمل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٨٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٧] ونصها : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٠] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : لأمثلنّ بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ماذكر أنه يفعله من المُثْلَة ، فكان تركه فعل ذلك عفواً. قال تعالى في هذه القصة : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[1] ـ انتهى ـ وظاهر أن عموم الآية مما يشمل كل ما ذكر. إذ لا تعيين « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » اللام إما للجنس ، وهم داخلون فيه دخولًا أولياً . وإما للعهد ، عبر عنهم بالمحسنين إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفيّ المستلزم لحسنها الذاتيّ . وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله[2] : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ـ أفاده أبو السعود ـ

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . ونصه : عن أبي هريرة قال : كان النبيّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به . وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ ربها. وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبيّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . الآية .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

قال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً » من السيئات الكبار « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بأى نوع من الذنوب « ذَكَرُوا اللهَ » أى تذكروا حقه وعهده فاستحيوه وخافوه « فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » أى لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى .

قال البقاعىّ : ولما كان هذا مفهماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب ، أتبعه بتحقيق ذلك، ونفى القدرة عليه عن غيره ، مرغباً فى الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين بقوله « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ » أى يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها « إِلَّا اللهُ » أى الملك الأعلى . وقال أبو السعود « مَنْ » استفهام إنكارىّ . أى لا يغفر الذنوب أحد إلا الله ، خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء ، فيسارع إلى الجواب به . والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة ، والجملة معترضة بين المعطوفين ، أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه ، والإشعار بالوعد بالقبول .

وقال الزمخشرىّ : فى هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه ، وجب العفو والتجاوز . وفيه تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة ـ انتهى ـ .

وفى مسند الإمام أحمد(١) عن الأسود بن سريع رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبىّ ﷺ : عرف الحق لأهله .
وفيه أيضاً(٢) : عن أبى سعيد الخدرىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

وفيه أيضاً(٣) : عن علىّ رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيرى استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، فيستغفر الله عزّ وجل إلا غفر له ، ورواه أهل السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ـ قال الترمذىّ : حديث حسن « وَلَمْ يُصِرُّوا » أى لم يقيموا « عَلَى مَا فَعَلُوا » أى ما فعلوه من الذنوب من غير استغفار «وَهُمْ يَعْلَمُونَ » حال من فاعل (يصروا) أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه ، والنهى عنه، والوعيد عليه . والتقييد بذلك ، لما أنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وقد روى أبو داود والترمذىّ(٤) والبزار وأبو يعلى عن مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه عن أبى بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم ٢ (طبعة المعارف) .
ورواه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٨١ ـ باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة .
(٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر، ٢٦ ـ باب فى الاستغفار، حديث ١٥١٤
والترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ١٠٦ ـ باب حدثنا حسين بن يزيد الكوفى .

وإسناده لا بأس به . قال ابن كثير : وقول عليّ بن المدينيّ والترمذيّ : ليس إسناد هذا الحديث بذاك ـ فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضرّ لأنه تابعيّ كبير ، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر ، فهو حديث حسن ـ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

«أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة «جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » أي ستر لذنوبهم « وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من أنواع المشروبات « خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » المخصوص بالمدح محذوف ، أي ذلك. يعني ما ذكر من المغفرة والجنات . ثم عاد التنزيل إلى تفصيل بقية قصة أُحُد ، بعد تمهيده مبادئ الرشد والصلاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قَدْ خَلَتْ » أي مضت « مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين « فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم « فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أي وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال . والأمر بالسير والنظر. لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

« هَٰذَا » أى القرآن أو ما تقدم من مؤاخذة المذكورين « بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى تخويف نافع « لِلْمُتَّقِينَ » ثم شجع قلوب المؤمنين وسلاهم عما أصابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منكم ، والحال أنكم الأعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » متعلق بالنهى أو بـ(الأعلون) . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه . أى إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون ، فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة ـ أفاده أبو السعود ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ » بالفتح والضم قراءتان ، وهما لغتان ، كالضَّعف والضُّعف ، أى

إن أصابكم يوم أُحُد جراح « فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » أى يوم بدر ولم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى ، لأنكم موعودون بالنصر دونهم ، أى فقد استويتم فى الألم ، وتباينتم فى الرجاء والثواب ، كما قال : إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ(١) . فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم ، فقد أصابهم ذلك فى سبيل الشيطان ، وأنتم أصبتم فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته . وقيل: كلا السّيّن كان يوم أُحُد ، فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ » أى أيام هذه الحياة الدنيا « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » أى نصرفها بينهم ، نديل تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء . فهى عرض حاضر ، يقسمها بين أوليائه وأعدائه . بخلاف الآخرة ، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا .

قال ابن القيم قدس الله سره (فى ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد) :

ومنها أن حكمة الله وسنته فى رسله وأتباعهم جرت بأن يُدالوا مرة ويدال عليهم أخرى ، لكن تكون لهم العاقبة . فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ، ولم يميز الصادق من غيره . ولو انتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة . فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وماجاؤوا به ، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة ـ انتهى ـ

وقوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » قال ابن القيم: حكمة أخرى وهى أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين فى غيبه ، وذلك العلم

---

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنمـا يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس .

لطيفة :

فى الآية وجهان :

أحدهما : أن يكون المعلل محذوفاً معناه: وليعلم.. الخ فعلنا ذلك .

الثانى : أن تـكون العلة محذوفة وهـذا عطف عليه معناه : وفعلنا ذلك ليـكون كيت وكيت ، وليعلم الله . وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعـل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصِّرهم أن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ـ أفاده الزمخشرى ـ

تنبيه :

فى هذه الآية بحث مشهور ، وذلك بأن ظاهرها مشعر بأنه تعالى إنما فعل ذلك ليـكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظيرها فى الإشكال قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ(١) ..الخ وقوله : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـكَاذِبِينَ(٢) وقوله : لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى(٣) .. الخ وقوله: وَلَنَبْلُوَنَّـكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْـكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ(٤) .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٣] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٢] ونصها : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

(٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣١] .

وقوله : إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ(١) .

قال الرازىّ : وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لايعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها فقال : كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالماً بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

ولما كانت الدلائل القطعية دالة على أزلية علمه جل اسمه ، أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة :

منها ـ أن هذا من باب التمثيل . فالتقدير فى هذه الآية : ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم فيها مجاز عن التميز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى لنميز الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم على حقيقته . إلا أنه معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث إنه واقع موجود بالفعل ، أى ليعلم الثابت واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذى لم يوجد ، وهذا ما اعتمده ابن القيّم كما نقلناه أولا .

ومنها ـ أن الكلام على حذف مضاف . أى ليعلم أولياء الله ، فأضاف إلى نفسه تفخيما ـ والله أعلم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذه سبحانه منهم شهداء بقوله « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى تضحية النفس شهادة للحق ، واستماتة دونه ، وإعلاء لكلمته ، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده ، وقد أعدّ لهم أعلى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

المنازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة . وفى لفظ (الاتخاذ) المنبئ عن الاصطفاء والتقريب ، من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله « وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قال ابن القيّم : تنبيه لطيف الموقع جدا على أن كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخزلوا عن نبيه يوم أُحُد فلم يشهدوه ، ولم يتخذ منهم شهداء ، لأنه لم يحبهم ، فأركسهم وردهم ليحرمهم ماخص به المؤمنون فى ذلك اليوم ، وما أعطاه من استشهد منهم ، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أولياءه وحزبه ـ انتهى .

فالتعريض بالمنافقين . ويحتمل أن يكون بالكفرة الذين أديل لهم ، تنبيهاً على أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم ، بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين . ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

« وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لينقيهم ويخلصهم من الذنوب ومن آفات النفوس . وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين ، فتميزوا منهم . فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوّ . ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بقوله « وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » أى يهلكهم ، فإنهم إذا ظفروا بَغَوْا وبطروا . فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، إذ جرت سنة الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ، قيّض لهم الأسباب التى يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم . ومن أعظمها ، بعد كفرهم ، بغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم . والمحق ذهاب الشىء بالكلية حتى لا يرى منه شىء ، وقد محق الله الذى حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصرّوا على الكفر جميعاً ، ثم أنكر تعالى عليهم حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد فى سبيله والصبر على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحَسِبَهُ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه ، فإنه لووقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه ـ أفاده ابن القيم ـ

وفى الكشاف « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ » بمعنى ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه ، لأنه منتف بانتفائه ، يقول الرجل : ما علم الله فى فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و (لما) بمعنى (لم) ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفى الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله .

لطيفة :

قال أبو مسلم فى (أَمْ حَسِبْتُمْ) : إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتى للتبكيت . وتلخيصه: لاتحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد، وهو كقوله : الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(١) . وافتتح الكلام بذكر (أم) التى هى أكثر ماتأتى فى كلامهم واقعة بين ضربين، يشك فى أحدهما لابعينه . يقولون : أزيداً ضربت أم عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا » كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر . وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها ، وبيّن وجوه المصالح فيها فى الدين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ و٢] .

وفى الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنـة مع إهمال هذه الطاعة ـ انتهى ـ .

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ » أى الحرب، فإنها من مبادئه ، أو الموت على الشهادة « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ » أى تشاهدوه وتعرفوا هوله « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » أى ما تتمنونه من أسباب الموت ، أو الموت بمشاهدة أسبابه العادية ، أو قتل إخوانكم بين أيديكم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » حال من ضمير المخاطبين . وفى إيثار الرؤية على الملاقاة ، وتقييدها بالنظر ، مبالغة فى مشاهدتهم له .

قال ابن عباس : لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا فى الشهادة ، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم ، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزل الله تعالى « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ . . . » الآية ـ وقد ثبت فى الصحيحين(١) أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٢ ـ باب كان النبيّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ، أخر القتال حتى تزول الشمس . ونصه :

عن سالم أبى النضر ، مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبد الله ابن أبى أوفى رضى الله عنهما ، فقرأته أن رسول الله ﷺ ، فى بعض أيامه التى لقى فيها ، =

قال أهل المغازى: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، أقبل عبد الله بن قمئة يريد قتل رسول الله ﷺ . فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه ، وهو يومئذ صاحب رايته ، فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع فقال : قد قتلت محمداً وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال. ففى ذلك أنزل الله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » والرسل منهم من مات ، ومنهم من قتل ، فلا منافاة بين الرسالة والقتل والموت ، إذ « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » فسيخلو كما خلوا «أَفَإِنْ مَاتَ» أى أتؤمنون به فى حال حياته فإن مات « أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ » أى ارتددتم « عَلَى أَعْقَابِكُمْ » أى بعد علمكم بخلو الرسل قبله ، وبقاء دينهم ، متمسكاً به « وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً » وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب «وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ» بالنصر والغلبة فى الدنيا ، والثواب والرضوان فى الآخرة ، وهم الذين لم ينقلبوا ، بل قاموا بطاعته ، وقاتلوا على دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتاً . وسمّاهم (شاكرين) لأنهم شكروا

= انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس قال « أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال « اللهم ! منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

نعمة الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف . والمعنى أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يفتر عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين، وكما قال أنس[١] (عم أنس بن مالك، يوم أحد حين أرْجف بقتل رسول الله عليه السلام وشاع الخبر ، وانهزم المسلمون، وبلغ إليه تقاول بعضهم: ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان . وقول المنافقين : لو كان نبيًّا ما قتل) : يا قوم ! إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد حى لايموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على مامات عليه ، ثم قال: اللهم! إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل ـ أفاده القاشانىّ ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٢ ـ باب قول الله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . ونصه :

عن أنس رضى الله عنه قال: غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر . فقال: يارسول الله! غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرينّ الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، ورب النضر ! إنى أجد ريحها من دون أُحُدٍ .

قال سعد : فما استطعت ، يا رسول الله ! ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ، ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم. ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّلَ به المشركون . فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال أنس: كنا نُرَى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ... الخ .

روى ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلًا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصارىّ : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل « وَمَا مُحَمَّدٌ ... » الآية ـ رواه أبو بكر البيهقىّ فى (دلائل النبوة) .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : ومنها ـ أى من الغايات فى هذه الغزوة ـ أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل. بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويُقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حيّ لا يموت . فلو مات محمد أو قتل لا ينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لا هو ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لا بد منه ، فسواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقى. ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل ، فقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... الآية ـ والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة ، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا ، فظهر أثر هذا العتاب ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد على عقبيه ، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم ، وأظفرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم ـ انتهى ـ .

وثبت فى الصحيح[١] أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه تلا هذه الآية يوم موت النبىّ ﷺ ، وتلاها منه الناس كلهم ، والحديث مشهور . ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلًا ، لا بد أن تستوفيه وتلحق به ، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً ، وإن تنوعت أسبابه ، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، بقوله :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره وإرادته « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أى كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لايتقدم ولايتأخر . وفى الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » أى مانشاء أن نؤتيه ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بمن حضر لطلب الغنائم « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » ونظير هذه الآية قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (١) . وقوله سبحانه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (٢) .

واعلم أن الآية ، وإن كان سياقها فى الجهاد ولكنها عامة فى جميع الأعمال . وذلك لأن المؤثر فى جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعى ، لا ظواهر الأعمال . ثم نعى عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية ، عليهم السلام ، بقوله:

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ و ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » أى كم من الأنبياء قاتل معهم ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، جماعتهم الأتقياء العباد «فَمَا وَهَنُوا» أى ضعفوا « لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » من الجراح وشهادة بعضهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسوله « وَمَا ضَعُفُوا » أى عن الجهاد أو العدوّ أو الدين « وَمَا اسْتَكَانُوا » للأعداء بل صبروا على قتالهم « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » على قتال أعدائه .

تنبيهات

الأول ـ (كأين) بمعنى (كم) الخبرية ، وفيها لغات ، قرئ منها فى السبع : كائن ممدوداً مهموزاً لابن كثير. والباقون بالتشديد . وفيها كلام كثير فى معناها ولغاتها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلًا ووقفاً ، وفى رسمها . فانظر موادّ ذلك .

الثانى ـ قرئ فى السبع « قُتِلَ » بالبناء للمجهول ونائب الفاعل « ربيون » قطعاً . وأما احتمال أن يكون ضميرا لنبيّ ومعه ربيون حال ، أو يكون على معنى التقديم والتأخير ، أى وكأين من نبيّ معه ربيون قتل ـ فتكلفٌ ينبو عن سليم الأفهام . وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله . وإن نقله القفال ، ونصره السهيليّ وبالغ فيه . فما كل سوداء تمرة .

الثالث ـ (الربيون) بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرئ بضمها وفتحها ، فالفتح على القياس، والكسر والضم من تغييرات النسب، وهم الربانيون ، أى الذين يعبدون الربّ تعالى.

ثم أخبر سبحانه، بعد بيان محاسنهم الفعلية، بمحاسنهم القولية، وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على عدوهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ » أى هؤلاء الربانيين، مثل قول المنافقين ولا المعجبين . و «قولهم» بالنصب خبر لـ (كان) ، واسمها (أن) وما بعدها فى قوله تعالى « إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال ابن القيّم : لما علم القوم أن العدوّ إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلّهم ويهزمهم بها. وأنها نوعان: تقصير فى حق ، أو تجاوز لحد . وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى ، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يقدروا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يثبتوا ولم ينتصروا . فوفّوا المقامين حقهما : مقام المقتضى ، وهو التوحيد ، والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالة المانع من النصرة ، وهو الذنوب والإسراف ـ انتهى ـ

قال القاضى : وهذا تأديب من الله تعالى فى كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن ، سواء كان فى الجهاد أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » من النصر والغنيمة ، وقهر العدوّ ، والثناء الجميل ، وانشراح الصدر بنور الإيمان ، وكفارة السيئات « وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم . وتخصيص وصف الحسن بثواب الآخرة للإيذان بفضله ومزيته ، وأنه المعتدُّ به عنده تعالى ، بخلاف الدنيا لقلتها وامتزاجها بالمضار ، وكونها منقطعة زائلة

« وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » إشارة إلى أن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان .

قال الرازيّ : فيه دقيقة لطيفة ، وهي أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا... الآية ـ سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسى حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز اه .

ثم حذرهم سبحانه ، إثْرَ ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء المفضى لسعادة الدارين ، من طاعة عدوهم. وأخبر أنه إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة. وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » أى إلى الشرك . والارتداد على العقب عَلَمٌ فى انتكاس الأمر ، ومَثَلٌ فى الحَوْر بعد الكَوْر « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » لدين الإسلام ولمحبة الله ورضوانه وثوابه الدنيويّ والأخرويّ. فلا تعتقدوا أنهم يوالونكم كما توالونهم . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على أن على المؤمنين أن لاينزلوا على حكم الكفار ولا يطيعوهم ولا يقبلوا مشورتهم خشية أن يستنزلوهم عن دينهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

« بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ » فأطيعوه « وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ » ينصركم خيراً من نصرهم لو نصروكم ، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال، كما وعد بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

« سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الذى يمنعهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم « بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » أى بكونه إلهاً أو متصفاً بصفاته أو مستحقاً للعبادة « سُلْطَانًا » أى حجة قاطعة ينبنى عليها الاعتقادات « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » هى . والمثوى : المقر والمأوى والمقام . من (ثوى يثوى) .

لطائف

الأولى :

أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب . قال القاشانىّ : جعل إلقاء الرعب فى قلوب الكفار مسبباً عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات فى قوى النفس لتنورها بنور التوحيد ، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن فى توحيده . وأما المشرك فلأنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذى لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل .

وقال القفال رحمه الله : كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أُحُد

إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك ، فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار . ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل ـ انتهى ـ

وقد ثبت فى الصحيحين[(١)] عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرةشهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاةفليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأُعطيتُ الشفاعة .

الثانية :

فى ذكر عدم تنزيل الحجة مع استحالة تحققها فى نفسها ، إشعار بنفيها ونفى نزولها جميعاً. لأن مالم ينزل به سلطاناً، لا سلطان له .

الثالثة :

قال أبوالسعود : فى الآية إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوىّ ، دون الآراء والأهواء الباطلة .

وقد سبقه إلى ذلك الرازىّ حيث قال : هذه الآية دالة على فساد التقليد . وذلك لأن الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلًا ، وهذا إنما يصح إذا كان القول بإثبات مالا دليل على ثبوته ، يكون باطلًا ، فيلزم فساد القول بالتقليد ـ انتهى ـ ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى النصر على عدوه ، وهو الصادق الوعد ، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزموا أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ، ولكن انخلعوا عن الطاعة ، وفارقوا مركزهم ففارقهم النصر ، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم سوء عواقب المعصية وحسن عاقبة الطاعة بقوله :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٦ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ » فى قوله: وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ. « إِذْ تَحُسُّونَهُم » أى تقتلونهم قتلًا كثيراً . من (حسه) إذا أبطل حسه « بِإِذْنِهِ » أى بتيسيره وتوفيقه « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » أى ضعفتم وتراخيتم بالميل إلى الغنيمة « وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى فى الإقامة بالمركز ، فقال أصحاب عبد الله[١] : الغنيمة . أى قوم ! الغنيمة . ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين ـ رواه الإمام أحمد ـ

و (الأمر) إما بمعنى الشأن والقصة، وإما الذى يضادّه (النهى) أى فيهم أمرتم به من عدم البراح « وَعَصَيْتُم » أى أمر الرسول أن لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا ، فلا تعينونا ـ رواه البخارىّ ـ « مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ » أى من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدوّ . روى البخارىّ[٢] عن البراء قال : لقينا المشركين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٧ ـ باب غزوة أُحُد وقول الله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . الخ ، حديث ١٤٤٢ = وهذا نصه :

يومئذ ، وأجلس النبيّ ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ـ بلفظ ما تقدم ـ ثم قال البراء : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة .. الحديث « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أى الغنيمة فترك المركز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » فثبت فيه وهم الذين نالوا شرف الشهادة ، ومنهم أنس بن النضر الأسد المقدام(١) ، القائل وقتئذ : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به

= عن البراء رضى الله عنه قال : لقد لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمّر عليهم عبد الله وقال « لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فأخذوا يقولون : الغنيمة ! الغنيمه ! فقال عبدالله : عهد إلىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صُرِفَ وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا .

وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدوّ الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك .

قال أبو سفيان : أُعْلُ هُبَلْ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوا» قالوا : ما نقول؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجلّ » .

قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٩٨٧ .

المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقى سعد بن معاذ ، فقال أين ياسعد ؟ إنى أجد ريح الجنة دون أُحُد ! فمضى فقُتِل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ـ هذا لفظ البخارى ـ وأخرجه مسلم بنحوه ، فرضى الله عنه وأرضاه وقدس روحه الزكية « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ، ودالت الدولة . وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى « لِيَبْتَلِيَكُمْ » أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه ، وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره ، وملتم إلى الغنيمة. ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » أى تفضلًا عليكم لإيمانكم « وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى فى الأحوال كلها ، إما بالنصرة وإما بالابتلاء ، فإن الابتلاء فضل ولطف خفى ، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فى المواطن ، ويتمكنوا فى اليقين ، ويجعلوه ملكة لهم ، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ، ولا يذهلوا عن الحق ، وليكون عقوبة عاجلة للبعض ، فيتمحصوا عن ذنوبهم ، وينالوا درجة الشهادة ، فيلقوا الله ظاهرين ـ أفاده القاشانى ـ .

لطائف

الأولى :

(إذا) فى قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إما شرط ، أوْ ، لا . وعلى الأول فجوابها إما محذوف أومذكور. فتقديره، على كونه محذوفاً، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منعكم الله نصره ـ لدلالة صدر الآية عليه ـ أو صرتم فريقين ، لأن قوله تعالى « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ . . . » الخ يفيد فائدته ، ويؤدى معناه . وعلى كونه مذكوراً فهو إما (وعصيتم) والواو صلة . وحكى هذا عن الكوفيين والفراء ، قالوا : ونظيره قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[1] . والمعنى ناديناه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣و١٠٤] .

وبعض من نصر هذا الوجـه زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو فى جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعـالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا[1] . أى فتحت . وأجابوا عما أورد عليهم من لزوم تعليل الشىء بنفسه ـ إذ الفشل والتنازع معصية فكيف يكون ان علة لها ـ بأن المراد من العصيان خروجهم عن ذلك المكان . ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عنه ، فلا لزوم . وإمّا قوله تعالى « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » وكلمة (ثم) صلة ـ قاله أبو مسلم ـ .

وعلى الثـانى أعنى كونها ليست شرطاً فهى اسم و (حتى) حرف جر بمعنى إلى متعلقة بقوله تعالى « صدقـكم » باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيـل : لقد نصركم الله (إلى) وقت فشلـكم وتنازعكم .

الثانية :

فائدة قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لمـا شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام .

الثالثة :

ظاهر قوله تعالى : وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ . أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأنها لم تذكر ، فدل على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الـكبائر .

الرابعة :

فى قوله تعالى : وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . دليل على أن صاحب الـكبيرة مؤمن ، فإن الذنب فى الآية كان كبيرة ـ والله أعلم ـ .

ثم ذكرهم تعالى بحالهم وقت الفرار بقوله :

---

(١) [٣٩/ الزمر / ٧٣] ونصها : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِذْ تُصْعِدُونَ » متعلق بـ(صرفكم) أو بقوله (ليبتليكم) ، أو بمقدر . والإصعاد الإبعاد فى الأرض . أى تبعدون فى الفرار ، وقرىء : تَصْعَدُونَ . من الثلاثىّ ، أى فى الجبل « وَلَا تَلْوُونَ » أى لا تعطفون بالوقوف « عَلَىٰ أَحَدٍ » أى من قريب ولا بعيد ، من الدهش والروعة « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ » أى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرة عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت فى مكانه فى نحر العدو فى نفر يسير وثوقاً بوعد الله ومراقبة له .

قال السدّىّ : لما اشتد المشركون على المسلمين بأُحُد ، فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىّ عباد الله ! إلىّ عباد الله ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل ـ ثم ذكر دعاء النبىّ ﷺ إياهم فقال : إذ تصعدون ... الخ ـ قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

وفى حديث البراء رضى الله عنه فى مسند الإمام أحمد[١] أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبىّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا . وروى مسلم[٢] عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٠٠ (طبعتنا) ونصه : =

الأنصار ورجلين من قريش : « فَأَثَابَكُمْ »أى جازاكم بهذا الهرب والفرار « غَمًّا بِغَمٍّ » أى غماً متصلاً بغم ، يعنى غم الهزيمة والكسرة ، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قتل . وقيل الباء بمعنى مع ، وقيل بمعنى على ، وهما قريبان من الأول . وقيل الباء للمقابلة والعوض، أى أذاقكم غماً بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، وقيل : المعنى غماً بعد غم أى غماً مضاعفاً . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى لتتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فيها ، وتتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة ، وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم ، فلا تحزنوا على مافاتكم من الحظوظ والمنافع . وقوله : « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وقيل جازاكم غماً بما غممتم به رسوله بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذى حصل لكم جزاءً على الغم الذى أوقعتموه بنبيه . والقول الأول أظهر لوجوه :

أحدها :

أن قوله لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح ، فنسوا بذلك السلب ، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

= عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » .
فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . ثم رهقوه أيضاً . فقال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » .

الثانى :

أنه مطابق للواقع ، فإنه حصل لهم غم فوت الغنيمة ، ثم أعقبه غم الهزيمة ، ثم غم الجراح الذى أصابهم ، ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث :

أن قوله (بغم) من تمام الثواب ، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى أثابكم غماً متصلاً بغم ، جزاء على ماوقع منكم من الهرب ، وإسلامكم نبيه ﷺ وأصحابه ، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم ، ومخالفتكم له فى لزوم مركزكم ، وتنازعكم فى الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غمًّا يخصه ، فترادفت عليهم الغموم ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم ، ورأفته ورحمته ، أن هذه الأمور التى صدرت منهم كانت من أمور الطباع ، وهى من بقايا النفوس التى تمنع من النصرة المستقرة ، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل ، فيترتب عليها آثارها المكروهة ، فعلموا حينئذ أن التوبة منها ، والاحتراز من أمثالها ، ودفعها بأضدادها ، أمرٌ متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشد حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التى دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل فى الأغلب إلا فى الخير ، ويجوز أيضاً استعماله فى الشر ، لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله ، أى رجع إليه . قال تعالى : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ [1] . والمرأة تسمى (ثيبًا) لأن الواطىء عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

الفاعل من جزاء فعله ، سواء كان خيراً أو شرًّا ، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم ، كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف ، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ[1] ـ قاله الرازى ـ .

تنبيه :

قال المفضل : (لا) زائدة ، والمعنى لتتأسفوا على مافاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم ، كقوله : أَنْ لَا تَسْجُدَ[2] ، و : لِئَلَّا يَعْلَمَ[3] ، أى أن تسجد وليعلم .

وعندى أنه بعيد ، لاسيما مع تكرار (لا) فى المعطوف ، واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها ، فالوجه ما سلف .

« وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » خيراً وشراً ، قادر على مجازاتكم ، وفيه أعظم زاجر عن

---

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ ـ ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الإقدام على المعصية . ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته ، وخفف عنهم ذلك الغم ، وغيّبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمنا منه ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً » أى أمناً . والأَمَنة (بتحريك الميم) مصدر، يقال : أمن أمناً وأماناً وأمَناً وأمنة (محركتين) وفى حديث(١) نزول عيسى عليه السلام ، إ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٠٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) ونصه:

عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلّات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم . لأنه لم يكن بينى وبينه نبىّ . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلا مربوعا إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام . فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام. ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال . وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم . فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون .

وتقع الأمَنة فى الأرض ، أى الأمن . ومثله من المصادر العَظَمة والغَلَبة ، وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى « نُعَاساً » بدل من « أمنة » وقيل : هو المفعول ، و « أمنة » حال أو مفعول له «يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ» وهم المخلصون ، أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق، الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس فى حال الحرب دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ . . .[1] الآية .

وروى البخارىّ[2] فى التفسير عن أنس عن أبى طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافّنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذىّ والنسائىّ والحاكم . ولفظ الترمذىّ[3] : قال أبو طلحة : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر ، ومامنهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس. فذلك قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً . وقد ساق الرازىّ لذلك النعاس فوائد : منها أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أدلّ الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم. وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويورثهم مزيد الوثوق بوعدالله تعالى ـ انتهى ـ ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه، لادينه ولا نبيه ولا أصحابه، بقوله « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أى مابهم إلا هم أنفسهم

(١) [٨ / الأنفال / ١١] ونصها : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١١ ـ باب أَمَنَةً نُعَاساً .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٥ ـ حدثنا عبد بن حميد .

وقصد خلاصها ، فلم يَغْشَهُم النعاس ، من القلق والجزع والخوف « يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ » أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه « ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ » كما قال تعالى فى الآية الأخرى : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا(١) ... الآية ـ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى فى سورة الفتح ، حيث يقول : وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا(٢) . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته المبرأة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه ، وكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يديل

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٢] ونصها : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٦] .

الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالةً مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبداً ـ فقد ظن بالله السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به ـ فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فوتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثاً ، ولا خلقها باطلًا : ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [١] . وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن السوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فمن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهى ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملًا كالأنعام ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] .

أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضي بقبح أحدهما وحسن الآخر ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة ، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان ـ فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز . وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يوهم ، بل يوقع في الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد ـ فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وإن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره والتشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به أن يكون في

ملكه مايشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه ـ فقدظن بهظن السوء. ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان ربي الأسفل ، كمن قال سبحان ربي الأعلى ـ فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال: وبالجملة فمن ظن به خلاف ماوصف به نفسه ، ووصفه به رسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ويخافونهم ، ويرجونهم ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه، أنه يخيبه ولا يعطيه ماسأله ـ فقد ظن بهظن السوء . وظن به خلاف ماهوأهله.

ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه وليًّا ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً ، حيًّا أو ميتاً ، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه ـ فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة في بعده من الله ، وفي عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقرًّا دائماً في حياته وفي مماته ، وابتلاه بهم لايفارقونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأذلوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعداءهم

عليهم أبداً ، أو أنه لا يقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعيه فى حضرته، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت (كما تظنه الرافضة)ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، سواء قالوا إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون فى قدرته أو فى حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذى فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هـذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم . وكل مبطل وكافر ومبتدع ومقهور مستذل ، فهو يظن بربه هـذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلوّ من خصومه . فأكثر الخلق، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه ، وتغلغل فى معرفة دفائنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارُه عما فى زناده ، ولو فتشت من فتشته ، لرأيت عنده تعتباً على القدر ، وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت، من ظنه بربه ظن السوء . وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين،

الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزّه عن كل سوء ، فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه . فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك . وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى . والمقصود ماساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل بقوله : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » أى هل لنا من أمر التدبير والرأى من شيء ، استفهام على سبيل الإنكار. أى مالنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا[1] . وذلك أن عبد الله بن أبىّ لما شاوره النبىّ ﷺ فى هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبىّ ﷺ فى أن يخرج إليهم ، كما تقدم : ولما رجع عبد الله بن أبىّ بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بنى الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شيء ؟ يعنى أن محمداً ﷺ لم يقبل قولى حين أمرته بأن يبقى فى المدينة ولا يخرج منها « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » أى التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مردّ له .

قال الإمام ابن القيم قدس الله روحه: ليس مقصودهم بقولهم : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ . وقولهم : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا . إثباتَ القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ، لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] ونصها : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لهم . فأكذبهم الله عز وجل فى هذا الظن الباطل ، الذى هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذى لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأكذبهم الله بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولابد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أم لم يشاؤوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكونى الذى لا سبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شىء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم فى بيوتكم ، وقد كتب القتل على بعضكم ، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابد . سواء أن يكون لهم من الأمر شىء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة ، الذين يجوّزون أن يقع ما لا يشاؤه الله ، وأن يشاء ما لا يقع ـ انتهى ـ « يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ » أى يضمرون فيها ، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية « مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ » لكونه لا يرضاه الله تعالى . ثم بين ذلك بعد إجماله فقال « يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ » أى المسموع « شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا » أى ما غلبنا ، أو ما قتل من قتل منا ، لأنا كنا نمكث فى المدينة ولا نخرج إلى العدوّ . ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلاً منهم ، ظناً أن الحذر يغنى من القدر ، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ » أى أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون « لَبَرَزَ » أى خرج « الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » فى اللوح المحفوظ « إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ » أى التى قدر الله قتلهم فيها ، ولم يثبتوا فى ديارهم ، لأنه يوقع فى قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذى لا يقع خلافه ولا يرد ، لقوله : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١) . وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة ، حيث لم يقتصر على تحقيق

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

نفس القتل ، بل عين مكانه أيضا . وفى التعبير بـ (مضاجعهم) من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم . « وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » أى ليعاملكم معاملة الممتحن ، ليستخرج ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ليجعله حجة عليكم ، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليماً ، والمنافق ومن فى قلبه مرض لابد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه ؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية ، للإيذان بكثرتها . كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى ... الخ ، أو لفعل مقدر بعدها ، أى : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين . وجَعْلُها عللاً لـ « برز » يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض ـ أفاده أبو السعود ـ ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله « وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة ـ ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبرّ والتقوى . فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه . فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضى لها من المحن والبلاء ، ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء . إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا ـ أفاده ابن القيّم .

وقال القاشانىّ : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفيتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكّلا بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله ﷺ بياناً لفضله : ما أوذى نبىّ مثل ما أوذيت . كأنه قال : ما صفى نبىّ مثل ما صفيت . ولقد أحسن من قال :

لله در النائبات فإنها صدأ اللئام وصيقل الأحرار

إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما فى مكمن استعداده .

« وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعيد . ثم أخبر تعالى عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ » أى عن القتال ومقارعة الأبطال « يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » أى جمع المسلمين وجمع المشركين « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » أى حملهم على الزلل بمكر منه . مع وعد الله بالنصر « بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » أى بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب ، كترك المركز ، والميل إلى الغنيمة ، مع النهى عنه ، فمنعوا التأييد وقوة القلب . قال ابن القيّم: كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه. ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عـدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه. فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر . والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى . ففرار الإنسان من عدوه ، وهو يطيقه ، إنمـا هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزله به . ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ » أى بالاعتذار والندم لأن هـذا الفرار لم يكن عن نفاق ، ولا شك أنه كان عارضاً عفا الله عنه ، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها « إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » أى يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المنافقون القائلون : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا . « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ » أى سافروا فيهـا للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل « أَوْ كَانُوا » أى إخوانهم « غُزًّى » جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا » أى مقيمين « مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول ، بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول: بل الآية تفيد الأمرين. أعنى حفظ الاعتقاد المقصود أولًا وبالذات، وحفظ المنطق مما يوقع فى إضلال الناس ، ويخل بالمقام الإلهى ، كما بينته السنة ، وسنذكره فى التنبيه الآتى .

وقوله « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ » أى القول « حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » متعلق بـ (قالوا) على أن اللام لام العاقبة ، مثلها فى[1] (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدةٍ ما ، على ذلك أصلًا « وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ » رد لقولهم الباطل، إثر بيان غائلته . أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد ابن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : مافىّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أوطعنة، وهاأناذا أموت كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء! « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تهديد للمؤمنين فى مماثلة من ذكر .

(١) [٢٨ / القصص / ٨] .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفراً . وفيها أيضاً دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فصلًا فى هديه ﷺ فى حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان ﷺ يتخير فى خطابه ، ويختار لأمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه ﷺ (١) عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أنى فعلت كذا وكذا . وقال : إنها تفتح عمل الشيطان. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل . وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتنى ما فاتنى أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدى عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته بـ (لو). وفى ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره فى نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإنّ ماوقع ممايتمنى خلافه، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته . فإذا قال: لو أنى فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف القدّر المقضىّ محال . فقد تضمن كلامه كذباً وجهلًا ومحالًا . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أنى فعلت لدفعت

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلّ خير. احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قَدَرُ الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ماقدر عليّ . فإن قيل : ليس فى هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التى تمناها أيضاً من القدر ، فهو يقول : لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عنى ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر . قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلاسبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته فى هذه الحالة أن يستقبل فعله الذى يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى مالا مطمع فى وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس هو مباشرة الأسباب التى ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد فى معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانىّ الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبىّ ﷺ منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها (لو) ، فلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، فالمتمنى من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصى كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التى تعرضه عن المعاصى ، ويحول بينها وبينه ، فيقع فى المعاصى . فجمع فى هذا الحديث الشريف ، فى استعاذته ﷺ أصولَ الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره / وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منها قرينتان فقال : أعوذ بك من الهم والحزن ، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن مامضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد :

قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم . بل إما أن يكون له حيلة فى دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة فى دفعه ، فلا يجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة ، ويستجن بجُنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدى الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به ربًّا فى كل شىء ، ولا يرضى به ربًّا فيما يحبّ دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به ربًّا على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق . فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة ، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذى كلما رآه شمر إليه ، وجدّ فى سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر ، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التى تضره فى معاشه ومعاده ، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والأنس به ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معارصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب فى سجن من الجحيم فى هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم فى معادها ، ولا تزال فى هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، والأنس به ، وجعل محبته فى محل دبيب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولى على القلب الغالب عليه ، الذى متى فقده ، فقد قُوتَهُ ، الذى لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التى هى أعظم أمراضه ، وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له ،

فمنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد . وإذا أقامه فى مقام ، أىّ مقام كان ، فبحمده أقامه فيه ، وحكمته أقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواه ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا يمنع عبده حقًّا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالمًا ، بل مَنَعَهُ ليتوسل إليه بمحابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ، ويتملقه ويعطى فقره إليه حقه . بحيث يشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع فى نفس الأمر وإن لم يشهده . فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه ، بخلًا منه ولا نقصان من خزائنه ولا استئثارًا عليه بما هو حق للعبد . بل مَنَعَهُ ليردّه إليه وليعزه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوةَ الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، ويوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشهده حكمته فى قدرته، ورحمته فى عزته، وبره ولطفه فى قهره . وأنّ منعه عطاء وعزله تولية وعقوبته تأديبٌ وامتحانه محبة وعطية وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه فى مقامه الذى لا يليق به سواه ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت فى سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ » أى فيه من غير قتال « لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ » أى لذنوبكم تنالكم « وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها الفانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)

« وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ » على أى وجه كان حسب القضاء السابق « لَإِلَى اللهِ » أى الذى هو متوفيكم لا غيره « تُحْشَرُونَ » فيجزيكم بأعمالكم .

لطائف :

الأولى : أطال نحاة المفسرين فى قوله تعالى « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا » الخ . من الوجوه النحوية فى (إذا) هنا ، وإنه ربما يتبادر أن الموقع لـ (إذ) لا لها حيث إن متعلقها وهو (قالوا) ماض . و(إذا) ظرف لما يستقبل . فمن قائل بأن (إذا) لحكاية الحال الماضية، ومن قائل بأنها للاستمرار . وقيل : إن (كفروا) و (قالوا) مراد بهما المستقبل . وفى كلٍّ مناقشات وتعسفات. والحق أنها تكون للمضىّ أيضا . قال المجد الفيروزبادىّ : وتجىء (إذا) للماضى كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا . فلا إشكال.

ونقل الرازىّ عن قطرب : أن كلمة (إذ) و (إذا) يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى . قال الرازىّ : وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، وذلك لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول ، فَلَأَن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى . ثم قال: وكثيرا أرى النحويين يتحيرون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم. فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى، انتهى.

الثانية : الجمهور على ضم الميم فى قوله تعالى : أَوْ مُتُّمْ . وهو الأصل لأن الفعل منه يموت. ويقرأ بالكسر وهو لغة طائية. يقال مات يمات مثل خاف يخاف فكما تقول خفت تقول مِت.

الثالثة : قدم القتل على الموت فى الأولى لأنه أكثر ثواباً وأعظم عند الله . فترتبُ المغفرة والرحمة عليه أقوى . وقدم الموت فى الثانية لأنه أكثر. وهما مستويان فى الحشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » أى للذين تولوا عنك حين عادوا إليك بعد الانهزام، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١) . و (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة . و (رحمة) بدل منها مبيّن لإبهامها . والتنوين للتفخيم ، أى ما لنت هذا اللين الخارق للعادة ، مع ماسبّب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة ، سيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به ، إلا بسبب رحمة عظيمة « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا » أى سيء الخلق خشن الكلام « غَلِيظَ الْقَلْبِ » أى قاسيه وشديده . تعاملهم بالعنف والجفا « لَا نْفَضُّوا » أى تفرقوا « مِنْ حَوْلِكَ » فلم يسكنوا إليك فلا تتم دعوتك. ولكن الله جعلك سهلا سمحا طلقاً ليناً لطيفاً بارًّا رءوفا رحيما . «فَاعْفُ عَنْهُمْ» أى فيما فرطوا فى حقك كما عفا الله عنهم «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ » إتماماً للشفقة عليهم « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » أى أمر الحرب وغيره توددًا إليهم وتطيباً لنفوسهم واستظهارا بآرائهم وتمهيدا لسنة المشاورة فى الأمة. وقد ساق العلامة الرازى وجوهاً أخرى فى فائدة أمره تعالى له عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم . منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان أكمل الناس عقلاً، إلا أن علوم الخلق متناهية. فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر بباله. لاسيما فيما يفعل من أمور الدنيا. فإنه ﷺ قال (٢): أنتم أعرف

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] ونصها : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٦ ـ كتاب الرهون ، ١٥ ـ باب تلقيح النخل ، حديث ٢٤٧٠ (طبعتنا) ونصه :

=

بأمور دنياكم. ومنها : أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم فى الأمر اجتهد كل واحد منهم فى استخراج الوجه الأصلح فى تلك الواقعة فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها ، وتطابقُ الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله . وهذا هو السر عند الاجتماع فى الصلوات ، وهو السر فى أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد . انتهى .

وقد ثبت مشاورته ﷺ لأصحابه فى عدة أمور: منها أنه شاورهم فى يوم بدر(١) فى الذهاب

= عن طلحة بن عبيد الله قال : مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل . فرأى قوماً يلقحون النخل . فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى . قال « ما أظن ذلك يغنى شيئاً » فبلغهم فتركوه . فنزلوا عنها . فبلغ النبىّ ﷺ فقال « إنما هو الظن إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه . فإنما أنا بشر. وإن الظن يخطىء ويصيب . ولكن ماقلت لكم : قال الله ـ فلن أكذب على الله » .

وحديث ٢٤٧١ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة أن النبىّ ﷺ سمع أصواتاً ، فقال « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها . فقال « لو لم يفعلوا لصلح » فلم يؤبّروا عامئذ ، فصار شيصا. فذكروا للنبىّ ﷺ فقال « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به . وإن كان من أمور دينكم ، فإلىّ » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبى سفيان . قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا . فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش ... الخ .

إلى العير . فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى[(١)] : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وشمالك مقاتلون . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم فى أُحُد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو . فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ. فأبى ذلك عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارىّ المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال .

وقال ﷺ فى قصة الإفك[(٢)] : أشيروا علىّ ، معشر المسلمين ، فى قوم أبنوا أهلى

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن ، بألمانيا) وصفحة ٢٦٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

والبخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤ ـ باب قول الله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ... الآية ونصه :

عن ابن مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً ، لأن أكون صاحبه أحبّ إلىّ مما عُدِل به . أتى النبىَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى. اذهب أنت وربك فقاتلا . ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك . فرأيت النبىّ ﷺ أشرق وجهه وسرَّه . يعنى قوله .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك .

وهو حديث جليل القدر . وفيه نزلت براءة سيدتنا أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها من السماء. وسنسرده بطوله فى تفسير سورة النور، إن شاء الله تعالى .

Obeikandi.com

ورموهم . وايم الله ماعلمت على أهلي من سوء. وأبنوهم بمن ، والله ، ما علمت عليه إلا خيرا . واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها . أفاده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال الخفاجيّ : في الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه بحضرته ﷺ . وقال الرازيّ : دلت على أنه ﷺ كان مأمورا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي. والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة ، فلهذا كان مأمورا بالمشاورة ، انتهى .

وقال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف . « فَإِذَا عَزَمْتَ » أي بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » في الإعانة على إمضاء ماعزمت، لا على المشورة وأصحابها . قال الرازيّ: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقول بعض الجهال. وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ » كما نصركم يوم بدر « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » كما فعل يوم أُحُد « فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » استفهام إنكاريّ مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة. وهذاتنبيه على أن الأمر كله لله، وترغيب في الطاعة ، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد . وتحذير من المعصية، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان . كذا في الكشاف . « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أي وليخص

المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه ، لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » قرئ بالبناء للمعلوم، أى ماصح وما تأتّى لنبىّ من الأنبياء أن يخون فى المغنم ، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل ، وعن تأثير دواعى النفس والشيطان فيهم ؛ وبالبناء للمجهول ، أى ما صح أن ينسب إلى الغلول ويُخوَّن .

روى أبو داود والترمذىّ(١) عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ما كان لنبىّ أن يغل ، فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها ، فأنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية . قال الترمذىّ : حسن غريب . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً ، ولفظه : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشىء فُقِدَ ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية ـ وهذا تنزيه لمقامه ﷺ الرفيع وتنبيه على عصمته . ثم أشار إلى وعيد الغلول بقوله « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى بعينه ، حاملا له على ظهره، ليفتضح فى المحشر ، كما روى الشيخان(٢) عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ حدثنا قتيبة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ـ لفظ مسلم . وروى البخارىّ[١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو فى النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلّها ـ وعن زيد بن خالد الجهنىّ أن رجلاً من أصحاب النبىّ ﷺ توفى يوم خيبر ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه النـاس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غلّ فى سبيل الله ، ففتشنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوى درهمين ـ أخرجه أبو داود[٢] والنسائىّ ـ وروى عبد الله بن الإمام أحمد[٣] عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم فيقول : مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم منه . إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك . وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر . فإن الجهاد باب من أبواب الجنـة. إنه لينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وأقيموا حدود الله فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٩٠ ـ باب القليل من الغلول .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٣ ـ باب فى تعظيم الغلول ، حديث ٢٧١٠ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القريب والبعيد ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم . وروى ابن ماجة بعضه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبىّ ﷺ فقالوا : فلان شهيد . فلان شهيد . حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة . ثم قال رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب ! اذهب فناد فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم[1] والترمذىّ . وروى أبو داود[2] عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادى فى الناس فيجوزوا بغنائهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة . فقال : أسمعت بلالاً ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجىء ؟ فاعتذر . فقال : كن أنت تجىء به يوم القيامة . فلن أقبله منك .

تنبيه :

من المفسرين من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازاً عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غلّ عما لزمه من الإثم مجازاً . قال أبو مسلم : المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ويعزره عليه يوم القيامة ويجازيه لأنه لا يخفى عليه خافية . وقال أبو القاسم الكعبىّ : المراد أنه يشتهر بذلك، مثل اشتهار من يحمل ذلك الشىء . وناقشهما الرازىّ بأن هذا التأويل يحتمل، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنعه منه ، وههنا لا مانع من الظاهر ، فوجب إثباته ـ انتهى . ومما يؤيده قوله ﷺ « له رغاء ، له حمحمة ... » الخ الظاهر فى الحقيقة زيادة فى النكال .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٤ ـ باب فى الغلول إذا كان يسيراً يتركه الإمام ولا يحرق رحله ، حديث ٢٧١٢ ، بهذا النص .

وأخرجه فى المسند أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، حديث ٦٩٩٦ (طبعة المعارف) .

« ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » تعطى جزاء ما كسبت وافياً ، وإنما عمم الحكم ولم يقل: ثم يوفى ما كسب ، ليكون كالبرهان على المقصود، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله ، فالغالُّ ، مع عظم جرمه بذلك أولى « وَهُمْ » أى الناس المدلول عليهم بكل نفس « لَا يُظْلَمُونَ » فلا ينقص ثواب مطيعهم ، ولا يزاد فى عقاب عاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ » بالطاعة « كَمَنْ بَاءَ » رجع « بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ » بسبب المعاصى كالغالّ ومن شاكله « وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ » أى طبقات متفاوتة ، تشبيه بليغ ، ووجهه ما بينهم من تباين الأحوال فى الثواب والعقاب ، كالدرجات فى تفاوتها علوًّا وسفلاً .

قال القاشانىّ : أى كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات ، أو هم مختلفون اختلاف الدرجات .

« وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها .

---

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ » أى أنعم « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى من جنسهم ، عربيًّا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته ، والانتفاع به . ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خُصوا بالذكر ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم إحسان إلى العالمين ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(١) . « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعنى القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى القرآن « وَالْحِكْمَةَ » أى السنة « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتزكيته « لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ظاهر من عبادة الأوثان ، وأكل الخبائث ، وعدوان بعضهم على بعض ، وسواها ، فنقلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم فى العلم والزهد والعبادة ، فعظمت المنة لله تعالى عليهم بذلك . قال الرازىّ : وفى قوله تعالى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وجه آخر من المنة ، وذلك لأنه صار شرفاً للعرب ، وفخراً لهم ، كما قال سبحانه: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٢) . وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه بين اليهود والنصارى والعرب ، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل . فما كان للعرب ما يقابل ذلك . فلما بعث الله محمداً ، وأنزل عليه القرآن ، صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم اه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذى أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا» الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد ، أو على محذوف مثل : أفعلتم كذا وقلتم . و« لما » ظرفه المضاف إلى أصابتكم ، أى حين أصابتكم مصيبة ، وهى قتل سبعين منكم يوم أُحُد ، والحال أنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين: من أين هـذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر « قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » أى مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز ، فإن الوعـد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة . قال ابن القيم : وذكر سبحانه هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك فى السورة المكية فقال : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(١) . وقال : وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ(٢) فالحسنة والسيئة ههنا النعمة والمصيبة ، فالنعمة من الله منَّ بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ، فالأول فضله ، والثانى عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » بعد قوله : قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادل قادر ، وفى ذلك إثبات القدر والسبب. فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه ، فالأول

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

ينفى الجبر ، والثانى ينفى القول بإبطال القدر ، فهو شاكل قوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [١] وفى ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة ، وهى أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنه هو الذى لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولا تتكلوا على سواه . وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحُد « فَبِإِذْنِ اللَّهِ » أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، فالإذن هنا هو الإذن الكونى القدرى ، لا الشرعى الدينى ، كقوله فى السحر : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [٢] . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير بقوله : وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

---

(١) [٨١ / التكوير / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » أى ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً « وَقِيلَ لَهُمْ » عطف على (نافقوا) داخل معه فى حيز الصلة. أو كلام مبتدأ « تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا » يعنى إن لم تقاتلوا لوجه الله تعالى فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأموالكم « قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَّبَعْنَاكُمْ » أى لكنه ليس إلا إلقاء النفس فى التهلكة « هُمْ » أى بهذا القول « لِلْكُفْرِ » فى الظاهر « يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ » فى الظاهر مع أنه لا إيمان لهم فى الباطن أصلا .

فائدتان :

الأولى ـ قال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان .

الثانية ـ قال الواحدى : هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر، ولم يطلق القول بتكفيره . لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم ، مع أنهم كانوا كافرين ، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله ـ انتهى .

« يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ » أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وقوله « بِأَفْوَاهِهِمْ » تأكيد على حد : وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ(٢) . « وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » .

---

(١) [٦/ الأنعام/ ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ » أى من أجل أقاربهم من قتلى أُحُد « وَقَعَدُوا » أى والحال قد قعدوا عنهم خذلاناً لهم « لَوْ أَطَاعُونَا » أى فى الرجوع « مَا قُتِلُوا » كما لم نقتل « قُلْ » كأنكم تزعمون ادعاء القدرة على دفع الموت « فَادْرَءُوا » أى ادفعوا « عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » أى فإنها أقرب إليكم من أنفسهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أن الموت يغنى منه حذر ، والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم، لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود ، مع كتابته عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه .

قال ابن القيّم : وكان من الحكمة تقديره تعالى فى هذه الواقعة تكلم المنافقين بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق ، وما يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة . فلله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذّرون الناس منه ، ليس مما يحذر ، بل هو من أجلّ المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون ، إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى ، أى لا تحسبنهم أمواتاً تعطلت أرواحهم « بَلْ » هم « أَحْيَاءٌ » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عِنْدَ رَبِّهِمْ »

إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم فى ذلك، بل بمعنى أنهم « يُرْزَقُونَ » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنويًّا ، بل حقيقيا . كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال[١] : لما أصيب إخوانكم بأُحُد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله عزّ وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الخ. هكذا رواه الإمام أحمد ؛ ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه . وأخرج مسلم[٢] عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... » الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق ـ نهر بباب الجنة ـ فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية ـ تفرد به أحمد ـ ورواه ابن جريج بإسناد جيد .

قال ابن كثير : وكأنّ الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة ، ومنهم

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هـذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ـ والله أعلم ـ ثم قال : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد[1] حديثاً فيه البشارة لـكل مؤمن بأن روحه تـكون فى الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعدّ الله لها من الـكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمـد بن إدريس الشافعىّ رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحىّ رحمه الله عن الزهرىّ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنمـا نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه . قوله : يعلق أى يأكل . وفى هذا الحديث أن روح المؤمن تـكون على شـكل طائر فى الجنة ، وأما أرواح الشهداء ، فـكما تقدم ، فى حواصل طير خضر ، فهى كالـكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الـكريم المنان ، أن يميتنا على الإيمان ـ انتهى ـ .

تنبيه :

قال الواحدىّ : الأصح فى حياة الشهداء ، ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم فى أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقال البيضاوىّ : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعـالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . الآية[2] ـ . وحديث : أرواح الشهداء فى أجواف طير .. الخ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

قال الشهاب : يعني ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو في الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهي جوهر مدرك لذاته ، أي من غير احتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقته بالتنعم ونحوه ـ انتهى .

وقال أبو السعود : في الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه . ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول: المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورًا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر ـ انتهى .

وقد أسلفنا في سورة البقرة ، في مثل هذه الآية ، زيادة على ذلك . فتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

«فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعني بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان الذين لا يغتم فيه بسلبه «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ» أي بإخوانهم المجاهدين الذين «لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» لم يقتلوا فيلحقوا بهم «مِنْ خَلْفِهِمْ» متعلق بـ« يَلْحَقُوا » والمعنى : أنهم بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم . أو لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» بدل من (الذين) ، بدل اشتمال مبين أن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم ، والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين. وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، بشّرهم الله بذلك ، فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد في الجهاد ، والرغبة في نيل منازل الشهداء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » أى يسرون بما أنعم الله عليهم ، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ، وتوفير أجرهم عليهم .

قال أبو السعود : كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة ، لا يقادر قدرها ، وهى ثواب أعمالهم . ثم قال : والمراد بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة . وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ، ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم ، وعدّت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين ـ انتهى ـ .

وقال ابن القيّم : إن الله تعالى عزّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : وَلَا تَحْسَبَنَّ ... الآيات ـ فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته ، وذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو أعظم مننه ، ونعمه عليهم ، التى قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهى منّته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال ، الذى كانوا فيه قبل إرساله ، إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم . فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له ، أمر يسير جداً فى جنب الخير الكثير . كما ينال الناس بأذى المطر ، فى جنب ما يحصل لهم به من الخير . وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ، ليحذروا ، وأنها بقضائه

وقدره ليوحدوه ويتكلوا عليه ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بماله فيها من الحكم ، لئلا يتهموا فى قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه . وسلّاهم بما أعطاهم مماهو أجل قدراً وأعظم خطراً ممـا فاتهم من النصر والغنيمة ، وعزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوا فيه ، ولا يحزنوا عليهم ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغى لكرم وجهه ، وعز جلاله .

ثم قال ابن القيّم : ولـما انقضت الحرب ، انكفأ المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذرارىّ والأموال ، فشق ذلك عليهم ، فقال النبىّ ﷺ لعلىّ بن أبى طالب : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن هم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده! لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزهم فيهـا . قال علىّ : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولـما عزموا على الرجوع إلى مكة ، أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : موعدكم الموسم ببدر . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : قولوا نعم قد فعلنا . قال أبو سفيان : فذلكم الموعد . ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان فى بعض الطريق ، تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ! أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم ، وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبىّ : أركب معك ، قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله وقال : يا رسول الله ! إنى أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته فأْذن لى أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل

معبدبن أبي معبد الخزاعيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم. فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله ، فلحقه بالروحاء ـ ولم يعلم بإسلامه ـ فقال : ما وراءك يامعبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا فى جمع لم يخرجوا مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة ـ انتهى ـ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » أى دعوة الله ورسوله إلى الخروج فى طلب أبي سفيان إرهاباً له « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » بأُحُد « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ » بطاعته « وَاتَّقَوْا » مخالفته « أَجْرٌ عَظِيمٌ » روى البخاريّ(١) عن عائشة رضى الله عنها فى هذه الآية قالت لعروة : يا ابن أختي ! كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما. لما أصاب نبيّ الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : من يذهب فى أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير ، قال ابن هشام(٢) : ولما ثنى معبد أبا سفيان ومن معه، كما تقدم ، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٥ ـ باب الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ .

(٢) السيرة الصفحة ١٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) وصفحة ٥٩٠ (طبعة جوتنجن) .

قالوا : نريد المدينة ؛ قال : ولمَ ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى فى ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » أى الركب المستقبل لهم « إِنَّ النَّاسَ » أى أبا سفيان وأصحابه « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » أى الجموع ليستأصلوكم « فَاخْشَوْهُمْ » ولا تأتوهم « فَزَادَهُمْ » أى ذلك القول « إِيمَانًا » أى تصديقاً بالله ويقيناً . والمعنى : أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا ، بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه . وفى الآية دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً ، فإن ازدياد اليقين بتناصر الحجج ، وكثرة التأمل، مما لا ريب فيه « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كافينا أمرهم من غير عدة لنا ولا عدد « وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » أى الموكول إليه والمفوض إليه الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

« فَانْقَلَبُوا » أى رجعوا من حمراء الأسد « بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » يعنى : العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب فى الدين « لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى لم يصبهم قتل

ولا جراح « وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ » أى فى طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم « وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » حيث تفضل عليهم بالعافية وما ذكر معها ، وبالحفظ عن كل ما يسوؤهم. وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

فائدة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

تنبيه :

حمل الآية على غزوة حمراء الأسد ، هو ماقاله الحسن وقتادة وعكرمة وغير واحد . وروى أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى . قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فى قوله تعالى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . » الآية ـ أن أباسفيان قال، لما انصرف من أُحُد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ! فقال النبىّ ﷺ : عسى ! فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً ، فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ، فذلك قوله تعالى « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ . . . » الآية ـ قال : وهى غزوة بدر الصغرى ـ رواه ابن جرير ـ وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال: لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان ، فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم (يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرعبوهم) فيقول المؤمنون « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » حتى قدموا بدراً ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد .

وروى البيهقىّ عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ » قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرًا مرت فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

قال ابن القيّم فى (الهدى) : إن أباسفيان قال عند انصرافه من أُحُد : موعدكم وإيانا العام القابل ببدر ، فلما كان شعبان ، وقيل ذو القعدة من العام القابل ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على ابن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، فانتهى إلى بدر ، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين ، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة، وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً، فلما انتهوا إلى مرّ الظهران ، مرحلة من مكة ، قال لهم أبو سفيان : إن العام عام جدب ، وقد رأيت أن أرجع بكم. فانصرفوا راجعين ، وأخلفوا الموعد ، فسميت هذه بدر الموعد ، وتسمى بدر الثانية ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية نزلت فى شأن غزوة حمراء الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ » أى قول الشيطان « يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ » أى يخوفكم بقوله أولياءه الكفار، وحينئذ فأولياءه ثانى مفعولى يخوف، والأول محذوف، أى يخوفكم أولياءه، كما قرئ كذلك ، وقيل : لا حذف فيه ، والمعنى يخوف من يتبعه ، فأما من توكل على الله فلا يخافه « فَلَا تَخَافُوهُمْ » أى أولياءه «وَخَافُونِ» فى مخالفة أمرى ورسولى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله . وقرئ فى السبع « يُحْزِنك » بضم الياء وكسر الزاى

« إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً » قال عطاء : يريد أولياء الله . نقله الرازىّ . قال أبو السعود: تعليل للنهى ، وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبداً ، أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتة . وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه ، وفيه مزيد مبالغة فى التسلية .

وقال المهايمىّ : أى لن يضروا أولياء الله ، لأنهم يحميهم الله ، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجيزهم إياه عن حمايتهم ، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئاً بل « يُرِيدُ اللَّهُ » أن يضرهم الضرر الكلىّ وهو « أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ » أى نصيباً من الثواب فى الآخرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية أنه لا يجب الاغتمام من معصية العاصين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى استبدلوا « الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً » فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم ، كأنه قيل : وإنما يضرون أنفسهم . فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه ، إما بأخذه بدلًا من الإيمان الحاصل بالفعل ، كما هو حال المرتدين ، أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة ، كما هو شأن اليهود ومنافقيهم . فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ، ببيان علته ، بتغيير عنوان الموضوع ، فإن ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم ، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلا ، كيف وهو علم فى الخسران الكلىّ ، والحرمان الأبدىّ ، دال على كمال سخافة عقولهم ، وركاكة آرائهم ، فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ، ورزانة الرأى ، ورصانة

التدبير ، من مضارة حزب الله تعالى ، وهي أعز من الأبلق الفرد ، وأمنع من عقاب الجو . وإن أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له ، الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق ، وملاحظة الدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس ، كما هو دأب جميع الكفرة ، فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا للقواعد الكلية ، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام ـ أفاده أبو السعود ـ ثم قال : وقوله تعالى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم ، بذكر غاية إيلامه ، بعد ذكر نهاية عظمه ، قيل : لما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وبتألمه عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك ـ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » أي بتطويل أعمارهم وإمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا « خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » بل هو سبب مزيد عذابهم ، لأنه « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » بكثرة المعاصي فيزدادوا عذاباً « وَلَهُمْ » أي في الآخرة « عَذَابٌ مُهِينٌ » ذو إهانة في أسفل دركات النار .

لطائف

الأولى :

في (ما) ـ من قوله تعالى « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » الأولى ـ وجهان : أن تكون مصدرية أوموصولة ، حذف عائدها . أي إملاؤنا لهم أو الذي نمليه لهم .

الثانية :

كان حق (ما) فى قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ، ولكنها وقعت فى الإمام متصلة ، فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام فى خط المصاحف .

الثالثة :

(ما) الثانية فى « إِنَّمَا نُمْلِى » الخ متصلة لأنها كافّة .

الرابعة :

فى قوله تعالى « مُهِينٌ » سر لطيف ، وهو أنه لما تضمن الإملاء التمتيع بطيبات الدنيا وزينتها ، وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر ، وصف عذابهم بالإهانة ، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد ، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب . فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم فى هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتمونه ، وظهر مخبآتهم ، وعاد تلويحهم صريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا ، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا فى نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ » أى يترك « الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » من الالتباس

بالمنافقين ، بل لا يزال يبتليكم «حَتَّىٰ يَمِيزَ »المنافق« الْخَبِيثَ مِنَ » المؤمن «الطَّيِّبِ وَ » لا يميز إلا بهذا الابتلاء لأنه « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » أى الذى يميز به ما فى قلوب الخلق من الإيمان والكفر « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ » باطلاعه على الغيب ، كما أوحى إلى النبيّ ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال ، حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من سوء جوارهم.

قال ابن القيّم : هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، كما قال[1] « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ » فحظكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة، كما قال تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » الذين اجتباهم للاقتداء بهم فى الاعتقادات والأعمال « وَإِنْ تُؤْمِنُوا » فتصححوا الاعتقادات « وَتَتَّقُوا » فتصلحوا الأعمال « فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » وههنا :

لطائف

الأولى :

فى التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما ، بما يليق به ، وإشعار بعلة الحكم .

الثانية :

إفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع ، للإيذان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادها ، كما فى مثل قوله تعالى « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ

(١) [٧٢ / الجن / ٢٦و٢٧] . . . فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.

أَلَّا تَعُولُوا »[١] ونظيره قوله تعالى « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »[٢] حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .

الثالثة :

تعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق ، مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وإفرازهم عن المنافقين، لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف فى المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى ، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان ، وإن ظهر مزيد إخلاصهم ، لا بالتصرف فيهم ، وتغييرهم من حال إلى حال أخرى ، مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ، ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه فى قوله تعالى « وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »[٣] .

الرابعة :

إنما لم ينسب عدم الترك إليهم ، لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب إليه ، فإن المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة ، كما يشهد به الذوق السليم .

---

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢] ونصها : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الخامسة :

التعرض للاجتباء فى قوله « يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ ... » الخ للإيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل، تقاصرت عنه همم الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم ، وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب أمر متين ، له أصل أصيل ، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام .

السادسة :

تعميم الأمر فى قوله تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهانىّ، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل ، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولًا أوليًّا .

هذا ما اقتبسناه من تفسير العلامة أبى السعود رحمه الله . وقد استقرب حمل هذه الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم . فالمعنى : ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك إلى الآن ، لسر يقتضيه ، بل يفرز عنهم المنافقين ، ولذلك فعله يومئذ ، حيث خلى الكفرة وشأنهم ، فأبرز لهم صورة الغلبة ، فأظهر من فى قلوبهم مرض ، ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤوس الأشهاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ » اعلم أنه تعالى لما بالغ فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى الآيات المتقدمة ، شرع ههنا فى التحريض على بذل المال فى سبيل الله ، وبيّن الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه ، وإيراد ما بخلوا به بعنوان (إيتاء الله تعالى إياه من فضله) للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم ، فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ[1] . « بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ » لاستجلاب العقاب عليهم ، والتنصيص على شريته لهم ، مع انفهامها من نفى خيريته ، للمبالغة فى ذلك . والتنوين للتفخيم « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل ، أى سيلزمون وبال ما بخلوا به لزوم الطوق . وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره ، وأنه نوع من العذاب الأخروىّ المحسوس . وأيدوه بما روى البخارىّ[2] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... » إلى آخرها .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] ونصها : ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٣ ـ باب إثم مانع الزكاة ، حديث ٧٤٦ .

وروى الإمام أحمد[١] والنسائيّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثّل الله عز وجل له مالَه يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، ثم يلزمه يطوّقه يقول : أنا كنزك، أنا كنزك .

وروى الإمام أحمد[٢] والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجه عن عبدالله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال : لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه ، يفرّ منه وهو يتبعه ، فيقول : أنا كنزك . ثم قرأ عبد الله مصداقه فى كتاب الله : سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال الترمذيّ : حسن صحيح .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان عن النبيّ ﷺ قال: من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يتبعه . فيقول: من أنت ويلك؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبع سائر جسده . قال الحافظ ابن كثير : إسناده جيد قوىّ ، ولم يخرجوه ، وقد رواه الطبرانىّ عن جرير بن عبدالله البجليّ . ورواه ابن جرير[٣] والحافظ ابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : لا يأتى رجل مولاه فيسأله من فضل مال عنده ، فيمنعه إياه ، إلا دُعِىَ له يوم القيامة شجاعٌ يتلمظ فضله الذى منع .

وروى ابن جرير[٤] مرفوعاً : ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه . ورواه أيضاً موقوفاً ومرسلاً .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٧٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
(٣) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٤ .
(٤) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٢.

والشجاع (كغراب وكتاب): الحية مطلقاً ، أو الذكر منها ، أو ضرب منها دقيق، وهو أجرؤها ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

ثم أشار تعالى إلى أنهم ، وإن لم ينفقوا أموالهم فى سبيله ، فهى راجعة إليه بقوله « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله . ونظيره قوله تعالى: وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ(١) فالميراث على هذا على حقيقته ، أو المعنى : أنه يفنى أهل السموات والأرض ويصير أملاك أهلهما بعد فنائهم إلى خالص ملكه ، كما يصير مال المورث ملك الوارث ، فجرى ما هنا مجرى الوراثة ، إذ كان الخلق يدعون الأملاك ظاهراً ، وإلا فالكل له ، وعلى هذا فهو مجاز .

قال الزجاج رحمه الله : أى أن الله تعالى يفنى أهلهما ، فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك ، فخوطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون، ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً، ملكاً له « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فيجازيكم على المنع والبخل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨١] (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » روى الحافظان ابن مردويه وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً(٢) . قالت اليهود : يا محمد ! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

وروى محمد بن إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال[١] : دخل أبو بكر الصديق بيت المِدْراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له (أشيع) فقال له أبو بكر : ويحك يافنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ! لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ! أبصر ما صنع بى صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولًا عظيماً . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلتُ ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . »[٢] الآية ـ ولما كان مثل هذا القول ، سواء كان عن اعتقاد ، أو استهزاء بالقرآن والرسول ـ وهو الظاهر ـ لا يصدر إلا عن تمرد

= و [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

عظيم لكونه فى غاية العظم والهول ، أشار إلى وعيده الشديد بقوله « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا » أى ما قالوه من هذه العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة « وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ » إنما نظم مع ما قبله إيذاناً بسوابقهم القبيحة ، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام « وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

« ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، بسبب هتكهم حرمة الله ، وحرمة كلامه وأنبيائه المبلغين له .

لطائف

الأولى :

إيراد صيغة الجمع فى الآية مع كون القائل واحداً ، كما روى ، لرضا الباقين بذلك ، ونظائره فى التنزيل كثيرة .

الثانية :

إضافة عذاب الحريق بيانية . أى العذاب الذى هو الحريق .

الثالثة :

الذوق إدراك الطعوم ، ثم اتسع فيه لإدراك سائر المحسوسات والحالات ، وذكره ههنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشىء عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال ـ أفاده البيضاوىّ ـ .

الرابعة :

تقديم الأيدى عملها ، لأن من يعمل شيئاً يقدمه ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من حيث

أن عامة أفاعيلها إنما تزاول بهنّ ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذى مدار جلّ العمل عليه .

الخامسة :

إن قيل « ظلّام » صيغة مبالغة من الظلم، تفيد الكثير ، ولا يلزم من نفى الظلم الكثير نفى الظلم القليل ، فلو قيل : بظالم ، لكان أدل على نفى الظلم قليله وكثيره . فالجواب عنه من أوجه :

أحدها ـ أن الصيغة للنسب من قبيل (بزّاز) و (عطّار) لا للمبالغة ، والمعنى لاينسب إلى الظلم .

الثانى ـ أن (فعّالا) قد جاء . لا يراد به الكثرة ، كقول طَرَفَة[1] :

ولستُ بحلّال التِّلاعِ مخافةً ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

لا يريد ههنا أنه قد يحلّ التلاع قليلًا ، لأن ذلك يدفعه قوله : متى يسترفد القوم أرفد . وهذا يدل على نفى البخل فى كل حال ، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة .

والثالث ـ أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلّام لعبيده ، فالصيغة للمبالغة كمًّا لا كيفاً .

---

(١) من معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

قال التبريزىّ : التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . والمعنى : إنى لست ممن يستتر فى القلاع . أى لا أنزلها مخافة فتوارينى من الناس حتى لا يرانى ابن السبيل والضيف . ولكن أنزل الفضاء وأرفد من يسترفدنى وأعين من استعاننى . والرفد العطية . والرفد المعونة .

و (مخافة) ينتصب على أنه مفعول له ، أو على المصدر .

الرابع ـ أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة . لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان للظلم القليل المنفعة أترك .

الخامس :

إن المبالغة لتأكيد معنى بديع ، وذلك لأن جملة : وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ـ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها ، أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم . والتعبير عن ذلك بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها . وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا » نصب بتقدير (أعنى) أو رفع على الذم بتقدير (هُمُ الذين قالوا) : « إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » أى أمرنا « أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ » أى تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لكذبهم « قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ » أى المعجزات الواضحة « وَبِالَّذِي قُلْتُمْ » بعينه من تشريع القربان الذى تأكله النار « فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » أى بعد بطلان عذرهم المذكور « فَقَدْ كُذِّبَ » أى فلا تحزن وتسلَّ فقد كذب « رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » جمع زبور أى الكتب الموحاة منه تعالى « وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » أى الواضح الجلىّ . والزبور والكتاب : واحد فى الأصل ، وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين . فالزبور فيه حكم زاجرة ، والكتاب المنير هو المشتمل على جميع الشريعة .

فائدة

فى قربان أهل الكتاب وتشريعه عندهم

اعلم أن القربان (بضم القاف) معناه ، لغةً ، ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلةً لمرضاته . قال فى مرشد الطالبين : كانت ذبائح العبرانيين عديدة جداً ، وكان المستعمل لهذه الذبيحة ، بتعيين الله ، الثيران والنعاج والمعز والحمام واليمام . وكانت الذبائح نوعين عامين : إحداهما كانت تقرب لتكفير الخطايا ، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته .

ثم قال : فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً ، وهى خروف بلا عيب ، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا ، وذلك مرتان صباحاً ومساءً ، طول مدة السنة ، فالتى فى الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلًا ، والتى فى المساء عن خطاياهم نهاراً . وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم ، وبهذا كان ينقل الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه ، ثم يذبح ويقرب وقوداً . وفى غضون ذلك تسجد الجماعة فى الدار ، وتبخر الكهنة على المذابح الذهبية ، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب . وأما فى يوم السبت ، فكانت تتضاعف الذبيحة ، ويقرب فى كل دفعه خروفان .

ثم قال : يوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية ، وهى أنه بعد أن يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ما عزان كفارة لخطايا الشعب ـ انتهى ـ .

وقد أشير لكيفية ذبح القربان وحرقه فى مواضع من التوراة. منها سفر الخروج فى الفصل التاسع والعشرين ، ومنها فى الفصل الأول من سفر الأحبار المسمين باللاويين ونصه : ودعا الرب موسى وخاطبه من خباء المحضر قائلا : خاطب بنى إسرائيل وقل لهم : أى إنسان منكم قرب قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم يقربون قرابينهم إن كان قربانه محرقة من البقر ، فذكرا صحيحاً يقربه عند باب خباء المحضر يقربه للرضوان عنه ، ويضع يده على رأس المحرقة ، ويترضى به ليغفر له ، ثم يذبح الثور ويقرب الكهنة بنو هرون الدم وينضحون الدم على المذبح ، وما أحاط به فى باب قبة الشهادة ـ يعنى التابوت الذى كان فيه لوحا التوراة المسماة شهادة ـ ثم يسلخون المحرقة ، ويقطعونها قطعاً ، ثم يوقدون ناراً على المذبح ، وينضدون الحطب على النار ، ثم يجعلون الأعضاء المقطعة الرأس والشحم على الحطب الذى على النار على المذبح ، ويغسلون أكارعه وجوفه بالماء ، ثم يصعده الكاهن ويجعله على المذبح وقوداً وقرباناً لرضا الرب ...الخ .

وفى الفصل السادس من سفر الأحبار : وكلم الرب موسى قائلا : مُرْ هرون وبنيه ، وقل لهم : هذه شريعة المحرقة ، تكون المحرقة على وقيدة المذبح طول الليل إلى الغداة ، ونار المذبح متقدة عليه ، ويلبس الكاهن قميصه من الكتان ، وسراويلات من الكتان على بدنه ، ويرفع الرماد الذى آلت إليه نار المحرقة على المذبح ، ويجعله إلى جانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثياباً أخر ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ، وتبقى النار على المذبح متقدة لا تطفأ ، ويضع عليها الكاهن حطباً فى كل غداة ... الخ .

قال بعضهم : زعم الربانيون أن النار التى كانت فى هيكل سليمان ، والتى أمر اليهود بحفظها دون أن تطفأ البتة ، كان أصلها من النار التى نزلت من السماء بعد تقدمة هرون وأبنائه المحرقات ، وأنها بقيت إلى أيام خراب الهيكل على يد بختنصر ، إلا أنه ليس فى التوراة ما يصرح بذلك ـ انتهى ـ

وهذه النار التى نزلت من السماء جاء ذكرها فى الفصل التاسع من سفر الأحبار وملخصه: أن موسى أمر هرون عليهما السلام أن يذبح قربانا ، فذبح عجلا وأحرق لحمه وجلده خارج المحلة ، وأما شحمه وكليتاه وزيادة كبده فقترها على المذبح ، ثم قرب تيسا وثورا وكبشا بكيفية خاصة ، ثم دخل موسى وهرون خباء المحضر ، فخرجت نار من عند الرب ، فأكلت المحرقة والشحوم التى على المذبح ، فنظر جميع الشعب وهتفوا مسبحين وسجدوا ـ انتهى ـ

إذا علمت ذلك ، فقوله تعالى « تَأْكُلُهُ النَّارُ » بمعنى أنه يذبح على الكيفية المعروفة ، ثم تنزل نار من السماء فتأكله ، وتكون معجزة وآية كما حصل فى عهد موسى وهرون من نزول النار وأكلها المحرقة ، كما ذكرنا . وفى عهد سليمان أيضا . فقد جاء فى الفصل التاسع من سفر أخبار الأيام الثانى : أن سليمان لما أتم الدعاء هبطت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح ، وكان جميع بنى إسرائيل يعاينون هبوط النار ـ انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » كقوله : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [(١)] . وفى هذه الآية تعزية لجميع الناس ، ووعد ووعيد للمصدق والمكذب « وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . قال الزمخشرى : فإن قلت : فهذا يوهم نفى مايروى أن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ! [(٢)] قلت : كلمة التوفية تزيل هذا

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى ٣٥ـ كتاب القيامة، ٢٦ـ باب حدثنا محمد بن أحمد بن مدويه =

الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

وقال الرازيّ : بيّن تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم ، وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .

= ونصه : عن أبى سعيد قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكشرون . قال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت . فأكثروا ذكر هادم اللذات ، الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود .

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا . أما إن كنتَ لَأَحَبَّ من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليومَ وصرتَ إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة .

وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا . أما إن كنتَ لأبغض من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليوم وصرت إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه .

قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه . فأدخل بعضها فى جوف بعض .

قال : ويقيض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا .

فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب .

قال: قال رسول الله ﷺ « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وكذا القول فى العقاب ، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحات وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة ، نعوذ بالله منه. « فَمَنْ زُحْزِحَ » أى أبعد «عَنِ النَّارِ» التى هى مجمع الآفات والشرور «وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ» الجامعة للَّذات والسرور « فَقَدْ فَازَ » أى حصل الفوز العظيم ، وهو الظفر بالبغية ، أعنى النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال(١): قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه . وأخرجه مسلم أيضا « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى لذاتها « إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » المتاع : ما يتمتع وينتفع به ، والغرور (بضم الغين) مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٦١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وهو جالس فى ظل الكعبة . فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر ، إذ نزل منزلا . فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جَشَرِهِ ومنا من ينتضل ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة . قال فاجتمعنا . قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال « إنه لم يكن نبىّ قبلى إلا دل أمته على ما يعلمه خيرًا لهم ، ويحذرهم ما يعلمه شرًّا لهم . وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها . وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد وأمور تنكرونها . تجىء فتن يرقق بعضها لبعض . تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى . ثم تنكشف . ثم تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه .

ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » .

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لمـا تمنّيه لذاتها من طول البقاء ، وأمل الدوام ، فتخدعه ثم تصرعه . قال بعض السلف : الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول. فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« لَتُبْلَوُنَّ » أى لتختبرن « فِى أَمْوَالِكُمْ » بمـا يصيبها من الآفات « وَأَنْفُسِكُمْ » بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد . وهذا كقوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ... إلى آخر الآيتين[(١)] ـ أى لا بد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده . أو أهله . وفى الحديث[(٢)] : يبتلى المرء على قدر دينه . فإن كان فى دينه صلابة، زيد فى البلاء . « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥و١٥٦] ... ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء ونصه : عن مصعب بن سعد عن أبيـه قال : قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاءً ؟ قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .

كَثِيرًا » بالقول والفعل « وَإِنْ تَصْبِرُوا » على ذلك « وَتَتَّقُوا » أى مخالفة أمره تعالى « فَإِنَّ ذَٰلِكَ » أى الصبر والتقوى « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى من معزومات الأمور التى يتنافس فيها المتنافسون . أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال المزية والشرف . أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه . يعنى : أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى ، لابد أن تصبروا وتتقوا . وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية، من إظهار كمال اللطف بالعباد، ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب الصبر. وأن الجهاد لا يسقط مع سماع ما يؤذى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » وهم علماء اليهود والنصارى « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ » أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته ﷺ . وفى قوله تعالى « وَلَا تَكْتُمُونَهُ » من النهى عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان، مبالغة فى إيجاب المأمور به « فَنَبَذُوهُ » أى الميثاق « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » أى طرحوه ولم يراعوه . ونبذ الشىء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به ، والإعراض عنه بالكلية . كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به « وَاشْتَرَوْا بِهِ » أى استبدلوا به « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى شيئاً حقيراً من حطام الدنيا « فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » بتغيير كلام الله ونبذ ميثاقه .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانه ، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره . وقد تقدم هذا ، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة . ويدخل فى الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين حيث تعذر الأخذ إلا منها .

وقال العلامة الزمخشرىّ عليه الرحمة : كفى بهذه الآية دليلًا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم ، وغيرة أن ينسب إليه غيرهم ـ انتهى ـ .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ـ أخرجه الترمذىّ[1] ـ ولأبى داود[2] : من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ماحدثتكم بشىء . ثم تلا : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ... الآية .

لطيفة :

قال العلامة أبو السعود : فى تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ، لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ ، والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشترى الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون ، مصحوبًا بـ(الباء) الداخلة على الآلات والوسائل ـ من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنىء الحقير ، على الشريف الخطير ، وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصداً ـ ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ـ انتهى ـ

ثم أشار تعالى أنهم لا يرون قبح ذلك بل يفرحون به فقال :

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ٣ ـ باب ما جاء فى كتمان العلم .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٤ ـ كتاب العلم ، ٩ ـ باب كراهية منع العلم ، حديث ٣٦٥٨ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » أى بما فعلوا من اشتراء الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالى « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ » أى بمنجاة « مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بكفرهم وتدليسهم.

روى الإمام أحمد(١) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، أن مروان قال : اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالكم وهذه، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ـ إلى قوله : وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخارىّ فى التفسير، ومسلم والترمذىّ والنسائىّ فى تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم فى مستدركه ، وابن مردويه بنحوه . ورواه البخارىّ(٢) أيضاً عن علقمة بن وقاص ، أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس ـ فذكره ـ وروى البخارىّ(٣) عن أبى سعيد الخدرىّ أن رجالًا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٨ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٧ .

إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت « وَلَا تَحْسَبَنَّ... » الآية ـ وكذا رواه مسلم بنحوه .

ولا منافاة بين الروايتين لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر ، ومعنى نزول الآية فى ذلك وقوعها بعد ذلك ، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها . كما حققناه غير مرة .

تنبيه :

هذه الآية ، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم ، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل . ويدخل فى ذلك المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا ، كما جاء فى الصحيحين[1] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . وفى الصحيحين[2] أيضاً : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور . فليحذر من يأتى بما لا ينبغى ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى .

فائدة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء فى الأول وضمها فى الثانى ، وفاعل الأول (الذين يفرحون) . وأما مفعولاه فمحذوفان اكتفاءً بمفعولى « تَحْسَبَنَّهُمْ » لأن الفاعل

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٦ (طبعتنا) ونصه :
عن ثابت بن الضحاك عن النبيّ ﷺ قال « ليس على رجل نذر فيما لا يملك . ولعن المؤمن كقتله . ومن قتل نفسه بشىء فى الدنيا عذب به يوم القيامة . ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . ومن حلف على يمين صبر فاجرة » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٦ ـ باب المتشبع بما لم ينل .
ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس ، حديث ١٢٦و١٢٧ (طبعتنا) .

obeikandi.com

فيهما واحد . فالفاعل الثانى تأكيد للأول، وحَسُنَ لما طال الكلام المتصل بالأول . والفاء زائدة ، إذ ليست للعطف ولا للجواب ، وثمت وجوه أخرى .

لطيفة :

تصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور، للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة ، وقطع أطماعهم الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة ، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية ، وعليه كان مبنى فرحهم . وأما نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسبانهم المذكور ، لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه الصلاة والسلام ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو قادر على عقابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إيجادهما على ما هما عليه من الأمور المدهشة ، تلك فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع ، وثمار وحيوان، ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما ، وكون كل منهما خلفة للآخر ، بحسب طلوع الشمس وغروبها ، أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه

بازدياده « لَآيَاتٍ » أى : لأدلة واضحةعلى الصانع وعظيم قدرته ، وباهرحكمته . والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفاً ، أى كثرةعظيمة « لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى لذوىالعقول المجلوّة بالتزكية والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » أى فلايخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر فى تصفية الباطن . فالمراد تعميم الذكر للأوقات ، وعدم الغفلة عنه تعالى . وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ، ليس لتخصيص الذكر بها ، بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالباً « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إنشائهما بهذه الأجرام العظام ، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلّهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى . كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

روى ابن أبىالدنيا فى (كتاب التوكل والاعتبار) عن الصوفىّ الجليل الشيخ أبى سليمان الدارانىّ قدس الله سره أنه قال : إنى لأخرج من منزلى ، فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة . وإنما خصص التفكر بالخلق ، للنهى عن التفكر فى الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته .

خرّج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن سلام : لا تفكروا فى الله ، ولكن تفكروا فيما خلق ، وله شواهد كثيرة .

قال الرازىّ : دلائل التوحيد محصورة فى قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس ، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (١) . ولما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمر فى هذه الآية بالفكر فى خلق السموات والأرض ، لأن دلالتها أعجب ، وشواهدها أعظم ، وكيف لا نقول ذلك ، ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى فى تلك الورقة عرقاً واحداً ممتدًّا فى وسطها ، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر ، حتى تصير فى الدقة بحيث لا يراها البصر ، وعند هذا يعلم أن للخالق فى تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة ، وأسراراً عجيبة ، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض ، ثم إن ذلك الغذاء يجرى فى تلك العروق ، حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة ، جزء من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم . ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة ، وكيفية التدبير فى إيجادها ، وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها ، لعجز عنه . فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة ، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات ، مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم . وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان . عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء ، كالعدم . فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشىء الحقير ، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله فى خلق السموات والأرض ، وإذا عرف بهذا البرهان النيّر قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام ، لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين . بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة ، وأسرار عظيمة ، وإن كان لا سبيل إلى معرفتها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا » على إرادة

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . . . وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

القول ، بمعنى يتفكرون قائلين ذلك . وكلمة «هذا» متضمنة لضرب من التعظيم ، أى ما خلقت هـذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً ، عارياً عن الحـكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحـكم جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ، ووجوب طاعتك ، واجتناب معصيتك ، وأن يكون مداراً لمعايش العباد ، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد .

لطيفة :

قال أبو البقاء : (باطلًا) مفعول من أجله . والباطل ، هنا ، فاعل بمعنى المصدر ، مثل العاقبة والعافية . والمعنى : ما خلقتهما عبثاً . ويجوز أن يكون حالًا . تقديره : ما خلقت هذا خالياً عن حكمة . ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلًا ـ انتهى ـ .

وقوله «سُبْحَانَكَ» أى تنزيهاً لك من العبث ، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال السيوطىّ : فيه استحباب هـذا الذكر عند النظر إلى السماء . ذكره النووىّ فى (الأذكار) اه . وفيه تعليم العباد كيفية الدعاء ، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولًا ، كما دل عليه قوله «سُبْحَانَكَ» ثم بعد الثناء يأتى الدعاء ، كما دل عليه « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجـلًا يدعو فى صلاته ، لم يمجد الله تعـالى ، ولم يصل على النبىّ ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليـه ، ثم يصلى على النبىّ ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء ـ رواه أبو داود[1] والترمذىّ وقال : حديث صحيح .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أنَّ ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم فى طاعة الله ، وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزى ، بقولهم :

(١) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث ١٤٨١ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » أى أهنته وأظهرت فضيحته لأهل الموقف. وسر هذا الإتباع عظم موقع السؤال ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ، كانت داعيته فى ذلك الدعاء أكمل ، وإخلاصه فى طلبه أشد ، والدعاء لا يتصل بالإجابة ، إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص ، وهـذا أيضاً تعليم من الله تعالى فناً آخر من آداب الدعاء « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ، ببيان خلود عذابهم ، بفقدان من ينصرهم ، ويقوم بتخليصهم . وغرضهم تأكيد الاستدعاء . ووضع (الظالمين) موضع ضمير المدخلين ، لذمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النـار بظلمهم ، ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها . وجمع (الأنصار) بالنظر إلى جمع الظالمين ، أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار . والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر . فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة ، على أن المراد بالظالمين هم الـكفار ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً » حكاية لدعاء آخر لهم ، وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة ، والابتهال . والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة ، وكمال النشاط . والمراد بالمنادى الرسول ﷺ ، والتنوين للتفخيم ، وهذا كقوله تعالى : وَدَاعِياً إِلَى اللهِ (١) . وفى وصفه ﷺ بـ (المنادى) دلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوى وتبليغها إلى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٦] ونصها : وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

الدانى والقاصى ، لما فيه من الإيذان برفع الصوت « يُنَادِي لِلْإِيمَانِ » أى لأجل الإيمان بالله . فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين (المنادى) و (ينادى) ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيماً لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من منادٍ ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهادٍ يهدى للإسلام ، وذلك أن المنادى إذا أطلق ، ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ، ويهدى لسداد الرأى ، وغير ذلك . فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهدى للإسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى، وفخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه : هداه للطريق وإليه . وذلك أن معنى انتهاء الغاية ، ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً ـ أفاده الزمخشرى ـ .

« أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » أى فامتثلنا أمره ، وأجبنا نداءه ، و«أن» إما تفسيرية أى آمنوا ، أو مصدرية ، أى : بأن آمنوا « رَبَّنَا » تكرير للتضرع ، وإظهار لكمال الخضوع « فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » أى استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ، وأذهب عنا سيئاتنا بتبديلها حسنات « وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى معدودين فى جملتهم حتى نكون فى درجتهم يوم القيامة . والأبرار جمع بارّ أو برّ وهو كثير البِرّ (بالكسر) أى الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » أى على تصديق رسلك والإيمان بهم . أو على ألسنة رسلك . وهو الثواب . وهذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله . وتكرير

النداء لما مرّ « وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله : يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ(١) . بإظهار أنهم ممن آمن معه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي » أى بأنى « لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ » بيان لـ (عامل) وتأكيد لعمومه « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم. وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال، فيما وعد الله عباده العاملين . وروى الحافظ سعيد بن منصور فى سننه عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ . . . » الآية ــ وقالت الأنصار : هى أول ظعينة قدمت علينا ــ ورواه الترمذىّ(٢) ،

(١) [٦٦ / التحريم / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير ، ٤ ــ سورة النساء ، ٩ ــ حدثنا ابن أبى عمر . ونصه : عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة، فأنزل الله تعالى: أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والحاكم فى (مستدركه) وقال : صحيح على شرط البخارىّ ، ولم يخرجاه . وروى ابن مردويه عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » إلى آخرها . وعن جعفر الصادق رضى الله عنه: من حَزَبَهُ أمر فقال : خمس مرات (رَبَّنَا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد . وقرأ الآيات .

« فَالَّذِينَ هَاجَرُوا » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية وهى المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة « وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » أى التى ولدوا فيها ونشأوا «وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي» أى من أجله وبسببه ، يريد سبيل الإيمان بالله وحده ، وهو متناول لكل أذى نالهم من المشركين « وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا » أى غزوا المشركين واستُشهدوا « لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جملة قسمية ، خبر المبتدأ الذى هو الموصول ، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه ، بعد ما وعد ذلك عموماً « وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت قصورها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » فى موضع المصدر المؤكد لماقبله ، فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة ، فى معنى الإثابة . وأضافه إليه تعالى ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلًا كثيراً . كما قيل[1] :

إن يعاقِبْ يكن غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلًا فإنه لا يبالى

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» أى حسن الجزاء لمن عمل صالحاً . ثم بين تعالى قبح ماأوتى الكفرة من حظوظ الدنيا، وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها، إثْرَ بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب ، بقوله :

---

(١) قائله الأعشى ، من قصيدة مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى . فهل تردّ سؤالى

الغرام: الشر الدائم . ومنه قوله تعالى: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . أى هلاكا ولزاما لهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » أى تصرفهم فيها بالمتاجر والمكاسب، أى لا تنظر إلى ماهم عليه من سعة الرزق ودرك العاجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

« مَتَاعٌ قَلِيلٌ » أى هو متاع قليل ، لقصر مدته ، وكونه بُلْغةً فانية ، ونعمة زائلة ، فلا قدر له فى جنب ما أعد الله للمؤمنين .

وفى صحيح مسلم(١) عن النبيّ ﷺ : والله! ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع ؟

« ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » أى مصيرهم الذى إليه يأوون « وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى الفراش هى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

« لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، غِبّ بيان وتكرير له ، إثر تقرير ، مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم ، ويزداد تبجحهم ، ويتكامل به سوء حال الكفرة . والنزل (بضمتين، وضم فسكون) المنزل ، وما هيئ للنزيل أن ينزل عليه « وَمَا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٥ (طبعتنا) عن المستورد ، أخى بنى فهر .

عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل . والتعبير عنهم بـ (الأبرار) للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البرّ ، كما أنها من قبيل التقوى .

روى الشيخان(١) ـ واللفظ للبخارىّ ـ عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ ، فإذا هو فى مشربة ، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وعند رجليه قرظ مصبور ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٢ ـ باب : تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، حديث ٧٦ . وها كموه بنصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله ، هيبة له . حتى خرج حاجا فخرجت معه . فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له . فوقفت له حتى فرغ . ثم سرت معه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! من اللتان تظاهرتا على النبىّ ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة . قال فقلت : والله ! إن كنت لأريد أن أسألك عن هـذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل . ما ظننتَ أنّ عندى من علم فاسألنى . فإن كان لى علم خبرتك به .

قال ثم قال عمر : إن كنا فى الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . قال : فبينا أنا فى أمر أتأمّره إذ قالت امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا . قال فقلت لها: مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لهـا : يا بنية ! إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة : والله ! إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ! لا تغرنك هذه التى أعجبها حسنُها حبُّ رسول الله ﷺ إياها (يريد عائشة) . =

فبكيت ! فقال : ما يبكيك ؟ قلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

وروى ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من نفس برة ولا فاجرة ، إلا الموت خير لها . لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالى « وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ »

= قال : ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة ، لقرابتي منها . فكلمتها . فقالت أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟

فأخذتنى ، والله ! ، أخذاً كسرتنى عن بعض ما كنت أجد . فخرجت من عندها .

وكان لى صاحب من الأنصار ، إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر . ونحن نتخوّف ملكاً من ملوك غسّان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا . فقد امتلأت صدورنا منه . فإذا صاحبى الأنصارىّ يدق الباب . فقال: افتح، افتح. فقلت : جاءالغسّانىّ؟ فقال: بل أشد من ذلك . اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . فقلت : رَغَمَ أنف حفصة وعائشة. فأخذت ثوبى ، فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله ﷺ فى مشرُبة له يرقى عليها بعجلة . وغلام لرسول الله ﷺ ، أسود ، على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لى .

قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث . فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلى حصير ، مابينه وبينه شىء . وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ حشوها ليف. وإن عند رجليه قَرَظًا مصبوباً. وعند رأسه أَهَبٌ معلقة. فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله؟ فقال « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ »

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٠و٣١ (طبعتنا) .

وقرأ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مَهِينٌ (١).

وروى ابن جرير عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » ويقول « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ ... » الآية ـ وأخرج نحوه رزين عن ابن عباس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

جملة مسأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حُكِيَتْ هناتهم من نبذ الميثاق ، وتحريف الكتاب وغير ذلك . بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على النبىّ ﷺ مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أى مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أى لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ . وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى ، وقد قال تعالى فى سورة القصص : « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا[١] . الآية، وقال تعالى وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[٢] وقال تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ[٣] . وهذه الصفات توجد في اليهود ، ولكن قليلا ، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس. وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[٤] .

وهكذا قال هنا « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

وقد ثبت فى الحديث[٥] أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة (كهيعص)

(١) [٢٨ / القصص/ ٥٢ـ٥٤] . . . وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٣] .

(٤) [٥ / المائدة / ٨٢ـ٨٥] .

(٥) هو جزء من حديث الهجرة إلى الحبشة أخرجه الإمام أحمد فى مسنده رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) وصفحة ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) فلا يَفُتْكَ نصه الطويل فإنه حديث جليل من الوجهة التاريخية .

بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنـده البطاركة والقساقسة، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحاهم .

وثبت في الصحيحين[١] أن النجاشي لما مات نعاه النبيّ ﷺ إلى أصحابه ، وقال: إن أخاً لـكم بالحبشة قدمات فصلوا عليه ، فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه .

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك قال : لما توفى النجاشي ، قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية ـ ورواه عبد بن حميدأيضامرسلًا[٢] . ورواه ابن جرير عن جابر ، وفيه : فقال المنافقون : يصلى علىعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت .

وروى الحاكم في(مستدركه) عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشي عدوّ من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لَدَاءٌ بنصر الله عز وجل ، خير من دواء بنصرة الناس . قال وفيـه نزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية ـ ثم قال : هـذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : وإن من أهل الكتاب ، يعني مسلمة أهل الكتاب .

وقال عبادبن منصور : سألت الحسن البصريّ عن قول الله: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤ ـ باب الرجل ينعَى إلى أهل الميت بنفسه ، حديث ٦٦٨ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٢و٦٣ عن أبي هريرة ، وحديث ٦٤و٦٥و٦٦ عن جابر ، وحديث ٦٧ عن عمران بن حصين (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٨٣٧٦و٨٣٧٧ .

الآية ـ قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله أجر اثنين : للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمداً ﷺ ـ رواه ابن أبى حاتم ـ .

وقد ثبت فى الصحيحين[١] عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ، فذكر منهم رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ـ أفاده ابن كثير ـ .

ثم إن الإخبار ، فى آخر الآية ، بكونه تعالى : سَرِيعُ الْحِسَابِ . كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفّيها كل عامل على ما ينبغى ، وقدر ما ينبغى. ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها . ولكونه من لوازمها أشبه التأكيد ، فلذا لم يعطف عليه ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث ٨٢ ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا » أى على مشاق الطاعات وما يمسكم من المكاره والشدائد «وَصَابِرُوا» أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد . لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . والمصابرة باب من الصبر . ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً ، لشدته وصعوبته ـ كذا فى الكشاف ـ « وَرَابِطُوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدوّ بالترصد والاستعداد لحربهم ، وارتباط الخيل. قال الله تعالى: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ[1] ، والرباط فى الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل معدّ لصاحبه ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً ، وقد يتجوّز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر ، فتسمى رباطاً ومرابطة .

قال الفارسىّ : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقد وردت الأخبار بالترغيب فى الرباط ، وكثرة أجره . فمنها ما رواه البخارىّ[2] فى صحيحه عن سهل

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٣ ـ باب فضل رباط يوم فى سبيل الله .

ابن سعد الساعدىّ أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم فى سبيل الله ، خير من الدنيا وما عليها .

وروى مسلم(١) عن سلمان الفارسىّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأَمِنَ الفُتَّان .

وروى الإمام أحمد(٢) عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ وقال : حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه أيضاً . وبقيت أحاديث أخر ساقها الحافظ ابن كثير فى تفسيره .

هـذا ومن الوجوه فى قوله تعالى « رَابِطُوا » أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فقد روى مسلم(٣) والنسائىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط . فشبه ﷺ ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط .

وروى الحاكم فى (مستدركه) والحافظ ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة العشرين من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

ورواه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٥ ـ باب فى فضل الرباط ، حديث ٢٥٠٠ .

والترمذىّ فى:٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ٢ ـ باب ما جاء فى فضل من مات مرابطاً.

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

أقبل علىّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدرى، يا ابن أخى! فيم نزلت هـذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ؟ » قلت : لا ! قال : أما إنه لم يكن فى زمان النبىّ ﷺ غزو يرابطون فيـه ، ولـكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها . فعليهم أنزلت « اصْبِرُوا » أى على الصلوات الخمس ، «وَصَابِرُوا» أنفسكم وهواكم ورابطوا فى مساجدكم . «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فيما عليـكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بما يغتبط به . و (لعل) لتغييب المآل . لئلا يتـكلوا على الآمال .

obeikandl.com

خاتمة

فيما ورد فى الآيات الأواخر من هذه السورة ، وفى فضل هذه السورة بتمامها

قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده .

روى البخاري[(١)] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر ، قعد فنظر إلى السماء ، فقال « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » ثم قام فتوضأ ، واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ـ وهكذا رواه مسلم ـ ورواه البخاري[(٢)] من طريق أخرى بلفظ : حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ... الحديث ـ وهكذا أخرجه الجماعة من طرق .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ . وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة ، حتى إذا لم يبق فى المسجد أحد غيرى ، قام فمر بى فقال : من هذا ؟ عبدالله؟ قلت : نعم ! قال : فمه ؟ قلت : أمرنى العباس أن أبيت بكم الليلة ، قال : فالحق، الحق .

(١) أخرجه البخاري فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ باب إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .

(٢) فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٢٠ ـ باب: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ .

فلما دخل قال : افرش . عبد الله ! فأتى بوسادة من مسوح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطه ، ثم استوى على فراشه قاعداً ، قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الملك القدوس (ثلاث مرات) ثم تلا هـذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها .

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائيّ من حديث عليّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً فى ذلك أيضاً .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة ، ثم قال : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن شمالى نوراً ، ومن بين يديّ نوراً ، ومن خلفى نورًا ، ومن فوق نوراً ، ومن تحتى نوراً ، وأعظم لى نوراً يوم القيامة(١) . وهـذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه .

وروى ابن مردويه وعبد بن حميد حديثاً عن عائشة ، وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله عليّ فى هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى قوله « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

ومما ورد فى فضل هذه السورة ما أخرجه مسلم(٢) والترمذيّ من حديث النواس بن سمعان : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِهِ الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال، مانسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان ، بينهما شَرْقٌ (أى ضياء ونور) ، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ تُحَاجّان عن صاحبهما .

والله سبحانه الموفق .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ و١٨٧ و١٨٩ و١٩١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا).

تمّ تفسير هـذه السورة صباح الجمعة فى ١١ ذى القعدة الحرام

سـنة (١٣١٨) وذلك فى حرم جامع السنانية

فى الشباك القبلىّ من السدة اليمنى العليـا

بيـد جامعه الفقير محمـد

جمـال الدين القاسمىّ

الدمشقىّ غفر له

ولوالديـه

وللمؤمنين

آمين

(ويليه الجزء الخامس وفيه تفسير سورة النساء)

ملاحظة : يتضح من الأصل أن المؤلف رحمه الله ، أعاد النظر على هـذا الجزء بعد عام ١٣٢٩ وإن لم يشر إلى ذلك ، لأن طريقة التصويب والتصحيح والشطب والتحشية، التى لوحظت فى الأصل، مطابقة لما ورد فى الجزء الثانى .

ظافر القاسمىّ

obeikandi.com

استدراك الجزء الثالث من « محاسن التأويل »

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٣	١٩	فى الآخِرة	« فِي الآخِرَةِ »
٣٦٥	٣	بقيعةً	« بقيعَةٍ »
٣٨٧	٩	على البِرِّ	« البِرِّ »
٣٩٧	٩	لم يرصوا	لم يرضَوا
٤١٦	١١	كما كُتِبٌ	« كُتِبَ »
٤٢٣	١٥	فليطعمان	كذا فى اليونينيَّة (باللام) وسقطت من الفرع كغيره (شارح)
٤٢٨	١٩	ليكونٌ	« لِيَكُونَ »
٤٣٠	٥	استحابه	استحبابه
٤٣٢	٢١	أزواجًا	« أزواجًا »
٤٤٢	١٤	لأنها	لا أنّها
٤٥٠	٣	عبد الله ابن عمرو	عبد الله بن عمرو
٤٥١	١٧	من نفِس	« مِنْ نَفْسٍ »
٤٦٦	١١	الى الحكّامٍ	« إلى الحُكَّامِ »
٤٧٢	١٣	وأن بعد	وأن يَعِدَ
٤٧٨	١	حتى لا تكونُ	« حَتَّى لَا تَكُونَ »
٤٨٣	٧	والعمرةَ	« وَالعُمْرَةَ »
٤٩١	١١	لمن يسق	لمن لم يسق

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٨	١٥	لِيُفْسِدَ	« لِيُفْسِدَ »
٥٩٩	٦	إنَّ .... وأنّ	وإنَّ
٥١٣	١٨	فإنما	فـ : إنَّمَا
٥١٤	١	وإنما	و : إنَّمَا
٥١٧	١٦	وما فى والأرض	« وما فى الأرض »
٥١٧	١٩	فى ايمانُها	فى إيمَانِهَا
٥١٨	٢١	صفات الخلوقين	المخلوقين
٥٢٤	١٣	إلى بكم	« إِلَىٰ رَبِّكُمْ »
٥٢٥	٢٠	من الـكفارُ	« مِنَ الـكُفَّارِ »
٥٢٧	١١	فيها ما تشتهى الأنفس	« وَفِيهَا ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ »
٥٢٨	٩	اتحرفوا	انحرفوا
٥٥٨	٩	والمُحصَناتِ	« والمُحْصَنَاتُ »
٥٦٩	١٣	والنسانى	والنسائىّ »
٥٨٣	١	إبطلالًا	إبطالًا
٥٨٥	١٠	أبو بكر أبن شيبة	بن أبى شيبة
٥٨٥	١٨	بما فضَّل الله به بعضهم	« بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ »
٦٠٤	١١	ثلاث معانٍ	ثلاثة
٦٠٦	٧	أحدهما	أحدها
٦٠٦	٨	ثلاث قُروء	ثلاثة قُروء
٦٠٦	١٦	تطلقتين	تطليقتين
٦١٠	٢٠	تَرْضَاهَ	تَرْضَاهُ
٦١١	٣	«وَلَامَوْلُودٌ»	« وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ »

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٢٧	٩	قَانِتِينَ	« قَانِتِينَ »
٦٤١	٦	أتبعه جمله	جملة
٦٤١	٧	أى يضيق على	أى يضيّق على
٦٤٧	٢٠	كَثرِةً	« كَثِيرَةً »
٦٧٨	١	هذ الآية	هذه الآية
٦٨٣	١٠	سيما	لاسيما
٦٨٤	١٦	سيما	لاسيما
٦٨٩	٤	فى الأَرْض	« فِي الأَرْضِ »
٦٨٩	١٩	لأرينا كهمُ	« لَأَرَيْنَاكَهُمْ »
٦٩١	٢	ولا شفيعٌ	ولا شفيعٍ
٦٩١	١٦	لا يَسئلونً	« لا يَسْئَلُونَ »
٦٩٤	٢	ثلاث معانى	ثلاثة
٧٠٠	٣	مَن خلاطه	مَن خالطه
٧٠٢	١١	فى الهوء	فى الهواء
٧٢٥	١٢	الأصفانى	الأصفهانىّ
٧٣٣	١٢	لهذه المعنى	لهذا